سليم بركات

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

البازيار

شعر

دار نوبغال للنشر

البازيار

سليم بركات

الباز يار

شعر

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي. ساحة محطة القطار
المدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تـم نشـر هذا الكتـاب ضمـن سلسلـة
نـصـوص أدبـيـة

الطبـعـة الأولـى، 1991
جميـع الحقـوق محفـوظـة

رقـم الإيـداع القـانـوني 759 / 1991

أسْرَى يَتَقَاسَمُون الكُنُوز

شامتةً تقتحم الحياةُ بخزّافيها المشهدَ،

فلأنهضْ، لا ليُؤْنِسني الذي أراه، بل لأُخْفِيَ عن الحياةِ حنينيَ المكسور.

ولأكْتُمنَّ أنيني، فالكلُّ على حالهِ:

الجبلُ الغارقُ خلف البيت ذي القرميد، والأطفالُ الصاخبون، كبراعمَ ميتةٍ، أمام سياج الجيرانِ، والمنزلُ الذي هجَرَهُ نزلاؤه، عابسيْن، شمال حديقتي، والزيزانُ المتباهيةُ بجدالِها الملكيّ، والفِناءُ العشبيُّ الذي ينقضُّ السنونو على نوافيرِه، وفسائلُ الجيرَانْيُومِ المروَّضةُ، وأعمدةُ الإسمنت التي تعلو، يوماً بعد يوم، في فراغٍ مُقْتَطَفٍ من ثراءِ الفراغات.

هكذا، المشهدُ على حالهِ،

والحقيقةُ على حالها:

عِراكُ مراهقيْن في طبقةٍ مَّا من المبنى، وصراخُ أبويْهما.

عِراكُ ملائكةٍ منذ أزلٍ، وصراخُ جذورٍ في الظلام.

فَلأنهضْ، إذاً، من الرُّقاد النَّسّاجِ، لا ليُؤْنِسَنِي الذي أراهُ، بل لأُؤْنِسَ الذي أراهُ من المشهدِ، وأُكْملَ الحنينَ بغواياتٍ تُرْوَى. وبالقُبَلِ ذاتها، التي اقتنصَتِ الشفاهَ طويلاً، فلأمتدح الخسارةَ المُكْتَنِزَةَ كجَاريةٍ مُكْتَنِزَةٍ، مردّداً بفَم الغُبارِ ما يُتْمِتمُه الغيبُ:

إنها القطيعةُ بين الأرضِ والريحْ.

لَأُنْكُثَنَّ بوعدي إذاً،

فالشفاهُ التي تردّد الكمالَ الصّاخبَ تردّدُ الموتَ، والموفَدُون إلى هذا الليلِ ليبْنُوا أدراجَهُ اللولبيَّةَ يبعثرونَ الرخامَ الذي حمَلوه.

أما المشهدُ المُقَامُ على أنقاضِ حالِهِ فهو على حالهِ،

والحيلةُ على حالِها،

والموتُ، وَحْدَهُ، الأكثرُ وِحْدَةً بين الأَسْرَى.

لكنْ، ما الذي يفعلُهُ الموتُ هنا؟

ما الذي يفعلُهُ الموتُ السكرانُ، ذو الدُّوارِ الأشدِّ، وهو يرمي بثيابهِ إلى الأرواح؟

مَا الـذي يفعله الــموتُ، الـمُسَطِّرُ بـأقلامـهِ على الفكـاهةِ النـائمةِ كورقةٍ مديدةٍ بين شِعْرٍ نائمٍ وأنينٍ يقظان؟

مَا الـذي يفعله الــموتُ، شريكـي، في هـذه البُرْهَـةِ التي تَتَـأَصَّل بجـذورٍ كجذُورِ التيـنِ، وبـراعـمَ من شعـاعٍ ينشرُ الــمغيبَ على أثـداءِ شقيقاتهِ؟

مَا الذي يفعلهُ الـموتُ، القادمُ بي إلى هَذْرِهْ؟

مَا الـذي يفعله الــموتُ الذي أضجَـرَ الشهودَ بِهَـرْجهِ، وخـرجَ مع الخارجين من الباب ذاتِه الذي يُفْضي إِلَى الحياة؟

مَا الـذي أفعلُه بالــموتِ، أسيري، وأنا الحـائرُ في تـدبيرِ زنـازينَ مضيئةٍ تليق بأَسْرَايَ وبِـي؟

فلْتتمهَّلِ الحقيقةُ في اقترابها من القيدِ الذي أشدُّ به رُسْغي إلى رُسْغِ الرِّيحْ.

أما الـمشهدُ فليبقَ على فراغهِ،

لَأنني سأستعْجلُ في إبرامِ العَقْدِ ذاكَ، الذي يقدِّمُ الهواءَ غريقاً إلى زَبَدي، وسأعلِّمُ نفسي مشافهاتِها الكبيرةَ بلسانٍ مقطوعٍ، فالأَمرُ كلُّه برهةٌ في يقينٍ مُنْكبٍّ على الرُّتوقِ كإسكافيّ.

وسأبوحُ بي للأرَقِ الذي يبوحُ بِقَدَرِه للْمِيَاهِ،

وستبوحُ الـمياهُ بي للسّكُون الجالسِ، حافياً، أمام مُريديه.

وسأقسِّمُ الهباتِ، التي رفعها الحريقُ إليَّ، بين اليقينِ والفكاهةِ؛
سأتقاسمُ والبرْدَ الضاحكَ شتاءنا اللَّهبي.

(«شقيقي أيها اللَّهبُ؛
شقيقي أيها الخداعُ؛
أيها الموتُ الذي من مياهٍ؛
ياشقيقاتي اللاّئي يوقدْنَ في الجذور صَخَباً رشيقاً كالسَّناجبِ، ما حيلتي في هذا؟:
العبثُ يُراهِنُ بالله حين نحجبُ عنه هِبَاتِنا»).

والمشهدُ؟ أيُّ حالٍ لِلْمشْهَدِ، أيُّ كُوًى يطلُّ منها الخالدُ على خلودِهِ؟
يقول جاري: «تمهَّلْ».
تقول الحديقةُ: «تمهَّلْ».
يقولُ المكانُ إسرافَهُ، ويضلِّلُ الزَّنبقُ الوردَ، كأنَّما العبثُ يغْزِلُ بِنَوْلٍ من الماسِ مَغِيْباً حياً كعضَلَةٍ في فخذِ الكلب.
وآخرون يقُولون، أيضاً، قولَهم المُمْتَهَنَ، فاصْغِ:
إنها مُهْلةُ القويِّ ينذرُ الأرحامَ؛
إنها مُهْلةُ الجاهلِ كي تسوِّيَ الحروفُ إشكالَها.
فليعْذُرني المشهدُ، إذاً، لأنني سأنجو منّي قبلَ اكتمالِ الطبائعِ

التي تنسجُ الأَلَم بخيوطٍ من ثرثرةِ العِنَبِ، عائداً بنُموري إلى القيامةِ، من الرّواق ذاته الـذي ترتطمُ فيه مـوازينُ باعةِ البُنـدقِ بالملائكةِ المتثـاقلةِ في عبورها.

ولـربما عـذرتُ الـمشهدَ، بِـدَوْري، على ثبـاتـهِ الأَخْـرَقِ ببيوتـهِ؛ بشجراتـهِ؛ بريـاحهِ الهيِّـنَةِ؛ بخزّانـاتِ الـمياهِ الـمنصوبةِ على الأَسطحـةِ كفُرُوْجٍ تقنـصُ الشمسَ؛ بصياحِ الديكـةِ الـمختبئةِ خلفَ سياجـاتٍ من اللُّوبْيَاء؛ بمصابيحهِ الـمضيئةِ؛ بالقَدَرِ الـمُراهِنِ على فكاهاتِهِ البارِدَةِ.

رُبّما،

رُبّما،

ــ «تُصبِحونَ على خيرٍ».

ــ «تُصبِحونَ على أَلَقٍ».

ــ «تُصْبِحُونَ على عَدَمٍ مُدْرَجٍ في قائمةِ الطعام».

«يا لَرُوْحي المغلوبةِ على أُمومتِهَا»:

هذا مَا أقولهُ، وأنا أغادركم من الباب الخلفيّ الـمُفْضي إلى الحياة.

لكنّ أَسْرَايَ يبقونَ هناك، في انتظارِ أن أحرِّرَ الأَزَلَ من الحُمَّى.

وأَسْرَايَ مِلْكُ مشاغِلهم، يدبّرونَ لي عذوبةَ الـمُضيّ بالخسارةِ إلى أَلَقِها. مُبَاهِيـنَ بسُفنٍ ليست لهم يبسطـونَ على الأرض أشرِعةً مـن خيالِ الـماء، متموِّجةً، كأنما تَلِدُ الظلالُ نَسْلاً من الحبالِ الـمشدودةِ إلى كَوْثَلِ الفجيعة.

هكَذا إلَى أَلَقِها؛
هكذا الخسارةُ إلَى أَلَقِها،
بأسْرَى يتقاذفُونَ الفجرَ كالوسائدِ،
ويتأمَّلون الفردوسَ المذعورَ متشبِّثاً بستارةِ المسْرح.

ـ «فَلْنَكُنْ فَكِهِيْنَ. فلنكُنْ جراءةَ القطيعةِ تؤلِّبُ النِّعمةَ على بناتِها».

ـ «فلأكُنْ وسيطاً».

ـ «فليكُنِ المنتصرونَ حيلةً تُشْغِلُ الرَّحِمَ بسباقٍ آخر»:

هَذا مَا أقوله، وأنا أغادركُم من البابِ الخلفيِّ المفضي إلى الحياة،

لكن أسرايَ ينتظرون أن أحرِّرَ الياقوتَ، وأختبىء في أمومةِ المراثي.

وأنا خَجِلٌ من أسرايَ كَيْفَ لا أقودُهمْ بي إلى كَيْدِ الشَّكْلِ وكنوزِهِ.

وأنا خَجِلٌ من الموتِ كيف لا أُعيدُ اليه أَقْدامَ الهربِ القويةَّ، ولا أحسبُ في ثرواته الموْتَى، لأنهم يقودون بي كَيْدَ الشَّكْلِ، ويأتمرون على غدِهمْ!

وأنا خَجِلٌ من العَدَمِ يقلِّدُني المكانَ فأنسى.

يالَنسياني، إذاً:

أَسْرَايَ يدفعونَ عَجَلَةَ الحظُوظِ الكبيرةَ صوبَ السورِ الكبير.

لاَ لُهاثَ. لا أختامَ على التُّرْقُواتِ. لا نُسورَ تحوِّمُ مشتمَّةً طَقْطقاتِ العظام. مؤتلقينَ بالذي فيهم من صيحةِ الرمادِ الحيِّ يدفعون العَجَلَةَ فتندفعُ حَدْراً إلى الصميمِ المفتوحِ للنهايةِ التي لا تكون.

يالَنسياني، إذاً:

عَجَلَةٌ و أسْرَى.

عَجَلَةٌ وأسْرَى كُثُرٌ ـ أسْرَايَ، تلكَ النظائرُ التي تمتحنُ الفروقَ بشهوةِ النهايةِ التي لاَ تكُون.

يالَنسياني، إذاً:

حَرْبَةٌ من ريحٍ، وقُلُوْعٌ من العافيةِ؛

ذكرى شهورٍ تحت الخمائرِ،

وأزيزُ طلْقاتٍ تفتحُ الحكمةَ على مِصْراعيْهَا.

. .ونسيانٌ. تَهَتُّكٌ في النسيانِ. نسيانٌ حَرِدٌ. نسيانٌ كبناتِ عُرْس. نسيانٌ يسترُ بيديِّ اللهِ رُعَافَهُ القويَّ. نسيانٌ محرِّضٌ يدلق الزيتَ على الأدراجِ، ويكلِّم الشهودَ بلسانِ الفلكيِّ الذي يحصرُ المتاهَ بفُرْجَارِهِ.

ذلِكُمْ أسْرَايَ، وذاك نسْيَانُهمْ،

فلأتَّفقْ، إذاً، عليَّ، لأخطوَ خُطواتِي على هيئةِ تحيرُ الريحَ، ولتتَّفقِ

القيودُ على عَـرْضِ طبائِعها، حتى لا أُدْرِجَ النهارَ في صُنوفي، ولا أتَّخِذَ البهيَّ قـريناً، مُمتَحنـاً أسْرَايَ فـي أشكالهـم ذاتِها، التـي تجتاح بكثيفهـا الـمُشْكِلِ ذلكَ النشيدَ الذي ينسبُهُ الأقوياءُ إلى الآلهة.

فليتَّفِقْ أسْرَايَ على زنازينَ مضيئةٍ تليقُ بي.

وفي اتجاهي ـــ اتجاهِ الـمشيئةِ الـمتعثِّرةِ بثيابها الطويلـةِ ـــ فلْينفُخِ القـادرونَ أبواقَهـم مـن السورِ الأعلـى بَيْنَ الأسْـوارِ، حتـى يختلطَ القَـدَرُ بقُرْآصِهِ وحراذينِهِ. وفي غربالٍ واحدٍ فلْتتجاورِ الحماقةُ والغدُ، مُنْتَثِرَيْنِ من الثقوبِ الكبيرةِ على الفراغِ كالطَّحين.

في اتجاهي،
في اتجاااااهي أيها الخفيُّ،
في اتجاهي أيتُها الجِهَاتُ،
عميقاً،
قربَ الفضيحةِ الناعسةِ في فرائها،
هُنَا،
حيثُ يخمِّنُ الطبَّالونَ مراتبَ الصوتِ،
وتتناحرُ الأمومةُ بسكاكينَ من دُعابةِ الذَّكَر.

في اتجاهي؛
في اتجاهِ ذلك كلِّه يدحرجُ أسرايَ مكايِلَهم.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

والـمشهدُ على حالهِ:

فتورٌ يمدُّ الجبالَ بهلوناتهِ. قنَّاصَةٌ من الورْدِ على الشُرفات. أنبياءُ قربَ سورِ سباق الخيل يحذّرون الشجرَ العالي. سنُونُو يروِّضُ أسلاكَ الكهرباء العالية. صوتُ المغسلة ذاتِها من وراء نافذةِ البيتِ الغربيّ، ونَحْنحاتُ المتأمرينَ وهم يسدلون الستارةَ، ليلاً، بين ربحٍ وآخرَ. والمساءُ الذي يدلُّ عليَّ جيادَه، كأني السَّهَرُ يفتحُ الخانَ الأوْسَعَ للمؤرِّقينَ بحمّى يتيمهم.

هكذا، الكلُّ على حالهِ:

المجدُ المُتهِلُ إلى قيافةِ الكسولِ؛ والقهقهةُ؛ والصيفُ؛ والجصُّ المتجمّدُ على مدخنةِ بيتِ الجارةِ الدانيةِ؛ وزهراتُ الميموزا؛ والغبارُ المحرِّضُ إذ يلقِنَ الطيورَ أسماءَها؛ والتعبُ؛ والظلالُ؛ والمجادلةُ المحبوكةُ كعَظْمٍ؛ والهمسُ؛ والدغدغاتُ؛ والبدعةُ التي تُطقطقُ كمقصِّ الحلاّقِ؛ والسِّحْرُ؛ وانْشِداهُ الحادثةِ برُؤْيتِها؛ والقيامةُ؛ والنفيرُ الأبعدُ الذي يلي كلَّ شيءٍ؛ والفتنةُ الدائرةُ بخواتمها على أناملِ المرتى.

فليتَّفقْ أسرايَ، إذاً، على سلامٍ مّا.

فلأتَّفق مع المكانِ على زنازينَ تليق بأشباحنا.

وفي اتجاهي ــ اتجاهِ الثُّغورِ التي ينفـذُ منها الحاضرُ إلى شهواتِهِ ــ فَلْتتسلَّق الأبـوةُ سورَ النعمةِ بلُبلابِهَـا، مُؤْمِنةً لـلأشدِّ دهاءً؛ للدَّهـاءِ ذاته؛ للأسلحةِ التي ستوقظُ الأرضَ من رُقادنا بعد حِينْ.

في اتجاهي:

أُبوةٌ في اتجاهي.

عطَّارون يدلقونَ قُفَفَ الحشائِش،

ودُعْرٌ ينخُر الأبدَ فيهْوِي؛

هَكَذا: الكلُّ يهْوي فـي اتجاهي، مظلَّةً من هُلامٍ كقنـاديلِ البحرِ، وأنا أتلقَّفُ مَن أتلقَّفُهُ بأيدي السعاةِ أو بشبَاك الحمْقَى.

وأتقـدَّمُ بي أسيــراً أسيراً أتمهَّلُهـم، فيتمهَّلونني ـ كمثلـي ـ بنـداءٍ شفيـفٍ، وهم يعُـدُّونَ القضبـانَ التـي يحملونهـا إلـى بـواباتِ سجـونهـم الرحيمةِ، هناك، واثقينَ من الألَمِ الذي سيدخلُ الرّدهةَ بقطيعِهِ، خفيفاً، يُتْمِتمُ بكلامٍ ككلامِ الـمَمْلُوكْ.

والألَمُ، بعد هذا، على حالِهِ:

مُـدَاهِنٌ يـرسمُ الحـديدَ علـى صُـورتِهِ، ويكمِّـم الأرضَ فلا تطلـقُ الصيحةَ التي ينتظرها العارِفُون.

والألَمُ رئةٌ، بعد هذا، أيضاً،

واتِّفاقُ شهودٍ،

وقرائنُ بها يحسمُ المرافعونَ عن اليقينِ جِدالَهم.

والألَمُ . . . آهِ أسْرَايَ:
سينْكُثُ الغدُ بوَعْدِه.
ستَنْكُثُ البيوتُ بوعْدِها.
ستَنْكُثُ الطرقُ، والحدائقُ، بوعُودِهَا.
ستَنْكُث المدَاخلُ، والـمتاهاتُ، بوعُودِهَا.
ستَنْكُثُ الروحُ بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ الريحُ بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ القيامةُ بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ الثمرةُ، التي لم تلْتَئِمْ، بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ الجَسارةُ بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ الحيْلةُ بوعْدِهَا.
ستَنكثُ الحَيااااةُ بوعْدِهَا،
وسأنكُثُ بوعْدِي، متقدّماً أسْرَايَ إلى الفضيحة.

بَيْدَ سَتَبْقَى الحظوظُ على حالها، معتكفةً بالـمناقيرِ الذَّهبيةِ على الغبار،

وسيبقى الغيبُ مُسترسلاً، كصيْدَليّ، في دَحْضِ عقاقيْرِهِ.

فمَنْ سيرتأي، مثلي، مشيئةً تأخذُ الحيَّ على مَحْمَلِ الحيّ، والفكاهةَ على محْمَلِ الأبَد؟

من سينقذُ اليقينَ من جَمَالِهِ؟

إنها القطيعةُ؛
إنها القطيعةُ،
وأسْرَايَ يسْتكمِلُونَ الفروقَ التي تعمِّمُ مجُونَها.

فلْيأسِرْني من يريدُ، إذاً؛
فليأسرني بِشباكٍ أو بِغَدٍ يُموِّه الشِّبَاكَ؛
بأنينٍ عالٍ، وسَكينةٍ كالحبرِ؛
برجفةٍ في اليديْنِ تدلقُ الحبرَ على الهَواءِ.

فلْيمتحِنْني أسْرَايَ بأنينيَ العالي؛
فلْيمتحِنْني قلبي كأسيرٍ لأمتحِنَ قلبيَ بفكاهاتِهِ الشَّاردةِ. ولْيتواطأْ أسْرَايَ معي على قَوْلِ فكِهٍ، فلربَّما قَهْقَهَ الجَمالُ مثلنا من الأرض تمزّقُ قُمْصَانَها، خارجَ الزنازين هذهِ، وهي تبعثُ برُسُلِها إلى الحريقِ فيرجعون ضاحكيْن.

ما همَّ:
بأقلامٍ كبيرةٍ، أو بمياهٍ،
بذهبٍ أو بقُضاةٍ،

بشهودٍ مذعورينْ، أو بنرجسٍ مذعورٍ، ستمتحنُ الريحُ أيضاً شُكوكها:

والحياةُ ستمتحنُ شكوكَها وهي تدخلُ، مُحْتشِمَةً، من البابِ الخلفيِّ الذي يفْضي إلَى شُكوكي.

هكذا: الكلُّ على حالِه:

القطيعةُ وامتحانُها،

المشهدُ واللهُ.

هكذاااا،

عميقاً،

حيث المُعْضِلَةُ المفتونَةُ بأبدٍ يتسلَّق بوَّابتَنا المُغْلَقة.

والبيتُ؟

بيتُنا. يا لَلْبيتِ؛ يا لَلُأفقِ الغربيِّ؛ يالَلْغدِ الضجرانِ؛ يا لَلْسَّهرِ المُمْتَحَنِ بالسّهارى؛ يا لَلْمشيئةِ؛ يالرُّمَّانِ المعلَّقِ أربعةَ شهورٍ على الشجرات ذاتها؛ يالَديكَةِ الظهيرةِ؛ يالَلْزائرينْ بأبواقهم يقبضونَ على النحاسِ المنثورِ في الهواءِ؛ يا لَنَهْبٍ يُبيْحهُ العَادِلُون.

عَاااادِلُونَ؛

كلُّهم عَادِلُون:

اسألوا أسْرَاي وهمْ يتصيَّدون الليلَ بشُصُوْصِ الألمِ الكبيرة.

. . . وكبيرةً فلْتكنِ المحنةُ بريشِها وزبيبِها، متدلّيةً من الخاتمةِ كإجاصٍ تَتَناهَبُهُ العصافيرُ.

كبيرةً لِتكُنِ المعاتباتُ بعد العِنَاق،

فالكلُّ على حالِهِ:

البطولةُ التي تنتظر من يحدّثُها حديثَ اليقظانِ، والدقائقُ الأربعون بين المدينةِ ومطارها الهاربِ، والخبرُ الكبيرُ إذْ يوسّعُ القَلَقَ لخَبَرٍ كبيرٍ، والصيفُ الذي يتسوَّل الشتاءَ المتسوّلَ، والزيارةُ المُحْتَمَلَةُ لمَلاَكٍ مَّا، والمائدةُ بقوائمها الأَرْبَعِ، خلفَ ستارةِ القشِّ الفاصلةِ بين هواءِ الرصيفِ وهواءِ الرصيفِ، حيثُ ندحرجُ شهواتِنا كَكَهنةٍ ينعمون بِحَرَجِ اللهِ من أعماقٍ لا تتَّسعُ لامتحانِه، وقد أسْلَمنا أهدابَنا للمشْهَدِ، وأسْلَمنا مواعيدَنا كفُستُقٍ تَتَذَرْذَرُ قشورُهُ على المائدة.

هكذا:

لا يقينَ،

لا جسارةَ،

لا خزَّافينَ،

لا قلبَ يُلقي بظلالِهِ على الفكاهةِ،

لا هبوبٌ، بل نفخٌ من فمِ الظلام.

هكذا:
هَذْرٌ خافتٌ،
وقبضةٌ تتكوَّر لتهْوِي.

هَكَذاااا:
خيانةٌ تتلمَّس ــ كورقةِ الدَّلْبِ ــ غُصنهَا المائل.

ووسطَ هذا كلِّهِ حَزْبَلٌ، وعرانيسُ ذرةٍ، وقفزٌ كقَفْزِ الكُنْغُرِ، وطُهاةٌ أيضاً، ونعيمٌ منهوبٌ، وحُليٌّ، وقياثِرُ، وقناديلُ بحرٍ بهلامٍ أنقى، ومجذِّفون بمجاذيفَ من عظامٍ، ولواحِمُ، وقرَّافاتٌ، وحجارةٌ للجَلْخِ، وسروجٌ، وموائدُ مموَّهةٌ بشرابٍ مموَّهٍ، وأكبادٌ، وزيزانٌ ضليعةٌ كالظهيرةِ في اقتسامِ الجهاتِ، وبنادقُ، ووراقونَ، وَعَدمٌ قيَّافٌ؛
وسطَ هذا أنينٌ يحنو على القَهْقَهة.

والغدُ على حالِهِ:
فناراتٌ غارقةٌ، وملوكٌ موعُودُونَ بشعوبٍ أقلَّ ضجراً.

فليعْذُرني أسْرَايَ: ما مِنْ راوٍ يبْعِدُ الحكايةَ عن زنازينهم، لينْعَمُوا بالأكيدِ المفتوحِ على قرائنِهِ العمياء.
مَا مِنْ رااااوٍ..

مَا مِنْ فضيحةٍ وسطَ هذا الـموتِ تُلْهِمُ الـموتَ فكاهاتِهِ؛
مَا مِنْ أحشاءَ لتتقطَّعَ؛
مَا مِنْ كَبِدٍ:
إنها الأَنفـاسُ الكبيرةُ فـي رئةٍ لم تشهـقْ قطُّ، وَوَسَـاوِسُ مِنْ ريـشٍ يتَّكِـىءُ عليها الـمنفيُّون.

فلْيعذُرني أسْرَايَ عُذْرَ الـمُقْتَدِرِ كي أهيّـىء الزنازينَ العادلةَ والهواءَ العادلَ، بشفاعةِ الـمديحِ الذي يتوكَّأ عليه الـموتُ. وليهدإِ الهائمونَ حول مسائي، فمَعِي الفِدْيةُ الكبيرةُ التي مـن شِبَاكٍ ومزاليجَ. ولا يتتبَّعنّني الغدُ، فالـرهائنُ الخارجـةُ بي ــ مـن الباب الخلفيّ الـذي يفضي إلى الحيـاةِ ــ خجولةٌ، والحياةُ خجولةٌ وراء الباب الخلفيّ الغارقِ في لَغَطِ الـمنفيّين.

هَكَذا،
مموَّهاً كَقَسَمٍ يكتملُ العاديُّ.
هَكَذا،
تسهرُ المعجزةُ قربَ الحريقِ الذي يُضرمُهُ العاديّون.
هَكَذا،
إلَهِي،
أدلُّ عليَّ مغاليقَكَ التي لا تنْتهِي،
وأنا أوهـمُ أسرايَ أنَّ لي شكيمةَ النرجسِ وسطوةَ العَبَيْرَانِ،

وأتذرَّعُ بكَ كي أُقوِّلَ النعمةَ ما لن يقولَهُ الـموتُ.

وأسْرَايَ؟

ما الذي يُشغلُ الكنوزَ بأسْرَايَ؟

سأقولُ لنفْسِي اخْتَرِ الـمشهدَ الذي علَى حَالِه،

فالـذين يُوقظـونني في الأحدِ الـميِّتِ، في الخميسِ الـميِّتِ، في السبتِ الـميِّت، في الثلثاء، في البدايـةِ الـميِّتةِ والنهايةِ الـميِّتةِ، يبْتسِمُون محيِّيْنَ مـن شرفةِ البنـاءِ الذي لم يكتمـلْ سقفُهُ القـرميدُ؛ البناءِ الفـاجرِ، الـمحتجزِ الهواءَ بخصيتَيْهِ الغبراوَيْن.

هكذا، يوقظونني بأنَفَةٍ كأنني سأشهدُ القطيعةَ التي يؤجِّجونهَا.

هَكَذا، كأنَّ الذي يمزّقُ قلبي يمزِّق الحدائقَ أيضاً.

لكنّني يقظانُ في المدى الذي توقظُ الآلهةُ فيه ما يُغيظُها؛

يقظانُ، مُمْتَنٌّ لفِتنةِ الأقوى؛

يقظانُ كَدَهاءِ الـمشهدِ الـمحمولِ على جِناسٍ كبير.

وثمتَ، هناك، كمائنُ في الآلَقِ، كمائنُ كمثلي، حيث أرتجلُ الغدَ ذا العربةِ الصلصاليـةِ، مغامراً بالنَّثْرِ الـمسكونِ الذي لاَ يُؤاتـي، وبالبلاغةِ اليقظى من ارتجـاجِ العجلاتِ على الحبرِ، صارخاً بـي: لاَ تفتحِ الـمساءَ على مصراعيهِ، ولاَ تقدِّمِ الليلَ بتعريفٍ إلى أشِقَّائِكَ الضاحكيْنَ، فالنهارُ لن يؤكِّدَكَ بثرثراتِهِ؛ لن يؤكِّدَكَ ضوءٌ، والـمصابيحُ الكبيرةُ نعاسٌ يقظان.

فلا تمتحِنُوا اليأسَ:
خِدعةٌ هذا الهواءُ الذي يُصرِّفُ بأسنانهِ،
والنحيبُ المتصاعدُ، فراغاً بعْدَ آخرَ، نحيبٌ يضلِّلُ المشيِّعينْ.
ولا تمْتحِنُوني؛
لا تمْتَحِنُوا أسْرَايَ بمُشَافهاتٍ كبيرةٍ؛
لا تمْتَحِنُوا الموْتَ الذي يَسرقُ الرّيحَ من فِخَاخِنا.

إنها القطيعةُ.
إنها القطيعهْ.

1987

مَهَابَاد

(إلى أولمبياد الله)

لِلْعظام رنينُها،
وللقُبور رنينُها،
والفجرُ، الأكثر اندلاعاً من حريقٍ، يدلُّ الموتَ على قاطنيه.
فلاتكتُبْني، الآن، أيها الملاَكُ، بالحروفِ ذاتها التي توبّخُ الحياةَ على جرائرِها العذْبةِ، وتستحي من الحبرِ فترتدي يقينَها. ولا تكْتبِ المنفى المفتوحَ كبابٍ رَكَلَهُ العابثون بمفاتيح الأشكال.
أمّا الأَرَقُ، الذي يبعثره الأطفالُ الهائمون في الحديقة، فهو الأرَقُ المُسَطَّرُ طولاً وعَرْضاً، والمَمْحُوُّ بالأعقاب الغادية في أعْماقِنا، حيث الطَّرقاتُ القويّةُ لأقدامٍ قويةٍ، وحيثُ تنحدِرُ اللّفافاتُ، التي يرميها البنّاؤون ــ في إهمالٍ ــ إلى غَدِهم.

والأحافيرُ بيني وبينك أيُّها المـلاكُ: جِرافـاتٌ، ورملٌ، وسَحَـرَةٌ يسرقون أخشابَ النوافـذِ ومقَابضَ الأبواب التي من نُحـاسٍ، وعـرائسُ من شَفقٍ ذائـب بيـن الأيدي . أمـّا اللاَّعبـون ـــ هؤلاء ـ الذيـن من شُبهاتٍ تبعثرُ التاريـخَ على أنقاضهِ، فَهُمْ أمـانةُ الفجر بيْننا، حتى نعثـرَ لهم على مساكنَ تليقُ بالعظام.

والـلاّعبـونَ يمتحنـونَ الفجـرَ الآن، بعِصيّهم الطـويلـةِ وكُـراتهـم؛ بقفزاتهم، وحديدهم الخفيفِ مثـل شَفَقٍ محمولٍ على حِمَارٍ. أمّا الأرضُ فهيَ لهاثُ الـمُشاهِدِ الـمختنقِ، حين يركضُ إلى السياجِ صارخاً: «أَوْقِفوا هذه الحقيقةْ».

وما السَّرْدُ إنْ سَرَدْتُ؟ إنّهم هناك:

الـمهجُورون، والعدّاؤون؛ رافعُو الأثقالِ، ورُمـاةُ الـمطارق؛ عابرو الحـواجز ركْضـاً، والــماشُون باتّكـاءٍ علـى حَقَـواتهم؛ والقـافـزُون عاليـاً بقصَبَاتهم الطويلـة، والجاثِمُون على مدارجِ الحَلَبَةِ يمتحنـون الثِّقَلَ الذي يشدُّهم إلى الحريق.

وعليَّ، كلاعبٍ مُمْتَحَنٍ، أنْ أتقدَّم ـ بدوري ـ لأرفعَ الحديدَ الذي يرفعُهُ الآخـرون، بيقينٍ مُسْتَتِرٍ لا يتوخَّـى الغَلَبَةَ، بل الوقـوفُ أمامَ الحشدِ الهائمِ في ذكرى انتصارِهِ الناقصِ على مجدٍ ناقصٍ، صارخاً: يالَثِقَلِيْ:

كيف أتـرهَّلُ هكـذا، عَضَلَةً عَضَلَةً، وعَظْمـاً عَظْماً؟ كيـف أتجنَّبُ الـموعدَ الـميّتَ الذي عقدتُهُ لِلِقاء الموْتى؟

لكنّني خائفٌ مـن الحشدِ هُناكَ، الذائبِ على المدارج كَـدِهَانٍ في

الظهيرة، لـذلك أجْمع أضـلاعي في صفّ واحـد، وأرفع رئتيَّ علـى فَجرٍ مهْزُوم، وأنا أقذفُ بـالرّمح في الحَلَبَةِ، أمامَ الحَكَمِ السَّـاهر على سَهَرِه، ليقولَ إنني رميتُ أبعدَ ممّا يُرمى رُمْحٌ في حَلَبةٍ ساهرةٍ على حَكَمِها.

أأقفزُ قفْـزتي، الآن، أَمْ أقطعُ الشوطَ القصيـرَ الذي ينتظرُهُ أتـرابي، وأنـا أنْحنِـي حتى تُـلامـسَ رُكْبتـايَ أرضَ السبـاق، وعيْنايَ علـى الشَّفَـقِ المرتدي قناعَهُ الأبــويَّ؟.

أأُقسِّم الحَلَبَة بيني وبين الشاردينْ؟

سَـأقذفُ الكُراتِ كلَّهـا، التي لنْ تُصيب مـرْمًى، وسأتزلَّج بحِكْمةِ الثلج الـمفْطُومِ عن رضاعـته؛

سأقدِّم هِبَاتي؛

فالريحُ، وحدَها، تسرق التينَ من راكضٍ لم يقتطِفِ التين.

وكأبٍ لم يبْلُغْ أبوَّتَـهُ، بَعْدُ، سأتفحَّـصُ المساءَ المتوثِّبَ للرّكضِ، وازِناً، في أعْماقي، بين قفزاتِهِ وقفـزاتي، وأنا لا أريدُ غَلَبَةً، بل أن تكْتمل المباراةُ بحاضرِيها، كي لا يتقوَّلَ الخاسرون على حَكَمٍ لا يُهْدي إلى أحدٍ شقاءَ انتصارِهِ، ولا يحسبُ الضّرَباتِ التي تُمِيْت.

وأنا هنا، على أيةِ حالٍ. أنا، والحضورُ هناك، والجهاتُ الـمأخوذةُ بِخَفْقَةِ الدمِ الـذي يخْرج عن طَوْره كـلاعبٍ مطرودٍ، حين تتقشَّـر النهايةُ أَلَقاً أَلَقاً، ويُغْمى على الألم؛

وأنا هُناك، محفوفٌ بجيرانٍ من التّعـب، وأفوّضُ النهارَ أن يؤكّدني بسطوتِهِ العمياء؛

وأنا هُناك، موزَّع بين العدَّائين، في الفجر الذي لن يربحه أحدٌ؛ في الفجر السَّيَّافِ الذي يجرُّ صباحاً مُثْقَلاً بنَسِيمة الريح؛

وأنا هناك، تتقدَّمني شاحناتٌ عجولةٌ تنزلق عن مقاوِدِها أيدي السَّائقين، ريثما تتأمَّنُ للمَوْتى مصادفةُ موتٍ آخرَ يختلقُ الحياةَ بأكاذِيبه.

أَأَبُوح لكُمْ كمْ خدعَني الجيرانُ لأدخلَ هذا السِّباق؟:

أَوْهَمُوني أنَّ لي رشاقةَ السِّلكِ، وفُجُورَ السِّياج. وأوهمُوا حديقتي أنها الطيرانُ الباحثُ عن ريش، ثم اسْتَلْقَوْا على حُصُرِهم، تحت النّدى الفاجرِ لصباحٍ مسكوبٍ من إبريقٍ حَجريّ، وتأمَّلُوا خُروجي منَ البابِ بعْدما وضعُوا أمامَ العتبةِ خُفَّيْنِ رياضيَّيْنِ، وقميصاً غريقاً. وأنا اتّخذتُ ذلك سبباً لأسْتسلمَ بقيودٍ من الأرقام إلى انْتِصَاري.

لقد فَتَنْتُهم: فَتَنْتُ الجيرانَ، والحَكَمَ الذّابلَ، والضوءَ المُمْسكَ بزَانَتِهِ الطويلَةِ، والحَلَبَة، معاً، راكضاً من مشيئةٍ إلى مشِيئة، ومن حِبْرٍ إلى حِبْرٍ، مُلتقطاً خَرَزَةَ الآدميِّ المكسورةَ تحت أقْدامِ سبقتني ولمْ تنتصرْ.

حَدِيثي فظٌّ. أعرفُ ذلك.

مُشافهاتي الصغيرةُ فظّةٌ. أعرفُ ذلك.

خُطواتي فظَّةٌ لأنني هيأْتُها للسِّباق.

وأنا فظٌّ، لأنكم تدركون المَعْنى في اشتغاله على يقينٍ مُهشَّمٍ في مرآةٍ مهشَّمَةٍ يتطلَّع إليها المهجُورُون.

والأرضُ فظَّةٌ، أيضاً. هـذه الزَّاناتُ الطويلةُ للقَفْـز، والـمَطَارقُ التي تِنُّ في قَذْفِها، والأفخاذُ الـمـقروءةُ على عـجَـلٍ ــ حين تتنهَّدُ عضلاتُها بالشهوةِ التي فيها إلى خسارةٍ لا تُحْتَسَبْ ــ كلُّها فظَّةٌ.

والحَلَبَةُ فظَّةٌ، لأنها ترْوي الثِّقَلَ الأكبرَ للموتِ بصوتٍ خَفِيْض.

(أيّها الموتُ،
ياأسْمالاً على كتِـفَيْن قويَّتين؛
يـا مِمْحاةً تـرتجفُ، ويـاقـوتةً غيـرَ مُثْبَتَـةٍ في الخاتَـمِ على نحـوٍ مُحْكَمٍ؛
يا مُبدِّداً نَفْسَهُ بين الألقابِ،
كأنّما سُلوقيٌّ يجرُّك لاهثاً،
وكأنّما ذاكِرَتُكَ تَتَراءى قِطَطاً مقذوفةً من الشُّرفات.

أيّها الموتُ،
ياغريقاً تمتدُّ إليه الأيدي كُلُّها،
خفِّفْ مُسَاءلاتِكَ قليلاً).

لكنّني راكِضٌ بـزانَتي الطويلةِ، وسَـط الهُتافِ الذي يجعلني شـريكاً لأوَّلِ راكضٍ آدميٍّ وسط الهُتاف. وحين أتَّكِـىءُ عليهـا باندِفَاعيَ الأقصى، متَّخِذاً لجَسَدي رَمْيَتَـهُ القوسيَّةَ، يشهد الهـواءُ لحذاقتي، ويتفنَّنُ الضوءُ في

سرْديَ شُعاعاً شُعاعاً على طفولته التائهةِ، لأنني استباقُ المراهنينَ وصْفَ يقينهم الذي لا يُوْصَف.

وفي عُبوري، قافزاً، يدحرج الجالسُون على المدارجِ أشكالَهم، قابضينَ ملءَ الأيدي على قفزاتٍ مُخْتَزَلَةٍ بين الجنون والجُنون، وهم يصْرخون بي: «خُذِ النهاية»، فآخذُ النهايةَ برَمْلِها، ودِهَانها، ووَرقِها، وإسفلتِها، وحَرَسِها، وحلاَّقيها، وسَواتِرها، ونُعاسِها، وشهَقاتِها، وكَراسيِّها، وتمَاثيلها، واعتذارِها الذي يدْلقُ الدَّمَ في مِصفاتِهِ.

والعدمُ يندفع، أيضاً، إلى المنصَّةِ التي يرفَعُ حاملُو الأثقال عليها القَنَاءَ المسبوكَ كحديدٍ منْ عسلٍ، فآخذُ مكاني بين المنْذورينَ، لأصعدَ ــ بدوري ــ إلى المنصَّةِ، وقد مَسَسْتُ براحتيَّ الرملَ الذي يُجفِّفهما لئلاّ ينزلقُ فيهما الحديدُ. وأرفعُ المساءَ خَطْفاً، ثلاثين حَجراً، وأُقَتِّنُ مما تركتِ الحياةُ على المساءِ من سَهَرِها، وقراريطَ أخرى من شحُوب المقامرِ الذي يوزّعُ الريحَ على أخواتِهِ.

أأُسمّي لكُم الأعلامَ التي هُناك، فوق الشُّرفات العاليةِ المستندةِ على البنادق؟ أأسمّي لَكُم البنادقَ الكثيرةَ هناك، حيث البطولةُ التي تتقنَّعُ في الدخُول على الكُرديِّ من حيائِها؟ أأُسمّي الكُرديَّ ليتدفَّأ الليلُ بقميصهِ المُنْتَهَب؟

قفْزتان، في الشوْطِ الأول، بِزَانَةٍ مكسورةٍ؛
قفْزتانِ باحْتكامٍ إلى إلهٍ مكسُور.

أآخذُ المساءَ أسيراً ليكتملَ ليَ الوصفُ، أمْ أتركُ المساء لاجتهادِهِ الرياضيّ؟ أأجمعُ المَطارقَ المقذوفةَ، في نهاية المديح، أمْ أكتفي بالذي معي من عويلٍ محسوبٍ بأمتار محسوبةٍ، في الدَّورات المُتْقَنَةِ لضجرِ الإنسان؟

سأرفعُ هذا الحديدَ، إذاً، على الخشَبة القوية التي تهتزُّ تحت قدميَّ القويتَيْنِ. سَأشهدُ امتحانَ العَضَلِ وامتحانَ الهَواء، حين تتَّخذ الشرايينُ النّافرةُ أُهْبَتَها وهي تمهّدُ للدَّم عُذْرَتَهُ وفُجورَه.

سَأرفعُ هذا الحديدَ بحكْمةِ الحديد.

سَأُقْسِمُ أن الحديدَ المرفوعَ على يديَّ هو الغدُ مغسولاً في رئةٍ كُرديَّةٍ.

هَكَذا أُلْقيَ بيَ في اللُّعبة.

هَكَذا أَلقيتُ باللعبةِ إلى ما يُشْغِلُني، لأعتكف كالنَّجّار على تقدير الزّوايا في الملهاةِ، عادياً بالصَّريرِ الذي يمهّدُ للأقْفالِ كي تَرَى، وبالفتنةِ التي توحّدُ الأنقاضَ.

فَلْيحضُرِ الرُّسُل كلُّهم، بالألمِ المُتْقَنِ كريشةٍ، كي يحدّثوا الحياةَ حديثَ المُراهِنِ، ولينقسموا حين يَرْوُوْنَ، لأن النّعمةَ تُصْغي بآذانٍ

طائشةٍ، ويدوّنُ الحاضرُ الأنينَ بثرثرةِ مُطَلَّقاتِهِ، لا بكَلامِ الشهود.

ولْتكُنِ القفزةُ عاليةً،

والركضُ في مُنْخَفَضٍ عالٍ؛

ولْتكُنِ الـملائكةُ تحت القوْس،

في الـمَدْخلِ الشماليِّ للحقيقةِ،

مرتديةً معاطفَها التي لهـا، وهي تقضمُ البُندقَ، ريثما تُبَلِّغُ الـمرئيَّ ــ شِفَاهاً ــ أنَّ الفكاهةَ ستَتَخَيَّرُ غِلْمانَها، وسيخْرجُ الحَاضرون منَ الحلبة بالأباريق التي لم يترْك عليها الموتُ شيئاً من نقوشِهِ الحيَّة.

يا لَـ «سَنْجارَ» الراكضِ إلى طُورُوسَ؛ يا لـ «جزيرة بُوْطَانْ»:

مَعاقلُ شفيفةٌ، وأسوارٌ كالأيدي تتلقَّفُ اللؤلؤ،

وهَياكلُ تكَمِّمُ الرّيح.

أمّا الصّـاعدُون، مثْلي، إلى الظّـلام، على سَلالَـمه البازلتيَّـةِ، فهُم امتحانُ اليقظةِ الحالمةِ بعِراكِ النَّجّارين.

وأنا..

أعَلَيَّ، أنا، أنْ أحتكمَ إلى أحدٍ؟:

دولٌ مذعورةٌ، وقَدَرٌ يتدحْرجُ ورَاء كُراتِهِ الطينيّة.

والوحدةُ تسرّح شعْـرها صباحاً، لتَتقدَّمَ البنّائينَ إلى الأبـديَّةِ، كأنما سأُعيرُها ــ بعد قليلٍ من الموتِ ــ حِكَاياتي، لتسْرُدَ علـى العَدَم حنينَهُ

الآليَّ، وكـأنما سيمْتحن الكُـرْدُ بها قهْقَهاتِهِمْ، وهُـمْ يجذِّفون بمَجَـاذيف الجليدِ إلى المصَّباتِ الكبيرةِ للأنيـنِ الكبيـر.

إلهي،

هَؤُلاَءِ أكْرَادُك، إلَهِي.

. . والبُنـدُق يتَناثـرُ. الإجاصـاتُ تتناثـرُ. الكُمّثْرَى يـوزّع الأدوارَ، والقمحُ يهذي:

لِتَكُن السنبلةُ مشيئةَ الموتِ،

لِيَكُـن المـوتُ أكثـر صَخَبـاً فـي الممـرّاتِ التـي يتقشّـرُ كِلْسُهـا، ويتحدَّث العابرُون فيها حديثَهم الـمؤجَّلَ بهمسٍ خَفِيْض.

فَـلاَ تأْخُذني أيهـا الملاكُ بجـريـرَةِ الحـيّ، لأني أُقـسِّمُ الـمصائرَ ـــ مِثْلكَ ـــ كالدُّرَّاقِ على العَـابثِيْنَ، وأرمي بيـديَّ الهَاذِيتين شبَحِـي من الباب ليُسَرّيَ عن الحياةِ بأقاصيصهِ.

ولاَ تنْتظرني، أيضاً، لأنـي ـــ كرَاكِضٍ في الأقاصِيـص ـــ يختطِفُني الذي لا يُروى، وأكـونُ النهايةَ حين لا يَخْتَتِـمُ الحادثُ سَرْدَ نهايتـه. فإن رأيتَ أن تتْبـعني فارْفع زانَتَكَ الطويلـةَ، وانتَعِلْ خُفَّيْكَ الرّياضيَّين، لأنـك ـــ كراكِضٍ فـي الأقَاصِيص مثْلي ـــ سَيتقاسَمُكَ الـمُراهنون في اقتحامِهِم ـــ الـمديحَ باباً باباً، بالحظوظِ التي يُباركها الخوْف.

ومن « مهـابادَ» إلى « مهـابادَ» تأنَّفْ قليلاً، مثْلي، أيُّهـا الـمَلاَكُ، وأنـتَ تفـكُّ سُيُـورَ خُفَّيْـكَ ، وتخلـعُ قميصـكَ التـرابـيَّ، متنفِّسـاً حتـى عِظامك، كأنّما حرَّرتْكَ المدائحُ من عَويلها، وبكَتْكَ القهقهةُ؛

كأنّما

فِتْنةٌ

أُخْرى

تَسْحلُكَ

مِنْ

سمَاءٍ

إلى

أُخرى،

ويُوْجِزُكَ الألمُ، الذي يعلّق الهواءَ كمعطفٍ إلى مشْجَبِهِ.

ومن حـريقٍ إلـى حريقٍ فلْيَغْتنـمِ القَدَرُ ما يتيحُـهُ الكُرْدُ للقَـدَرِ من ثَرثـرةٍ يسردُ بهـا على الأرضِ كَسَلَهُ الـذَّهبيَّ. قبـل أن يَقْتَحِمَ الـراكضون بأشْبَـاحهم سياجَ غـدِهم الـمذعورِ، وهـم يرمون قُمصَـانَهم ليتدفَّـأَ الهواءُ بها، ويتركونَ أحذيتهم للحصارِ كيْ ينقلَ الحصارُ الجرْحَى من الوردِ إلى الوَرْدِ ماشياً.

والريحُ؟! مالَها؟ من « مَهَابادَ» إلى « مَهَابادَ» أيضاً.

كلُّها من « مَهَابَاد» إلى « مَهَابَاد».

كلُّ ضربةٍ من « مَهَابَاد» إلى « مَهَابَاد».

كلُّ عويلٍ من « مَهَابَاد» الى « مَهَابَاد»،

والأمومةُ حيْرى بأنْدائِهاَ ا الحجريَّةِ بين أبنائِهَا:
فإنْ أيقظني اللّهُ، في المديح الرَّطب للدَّمِ، أحضرْتُ خُفَّيَّ،
وإنْ أيقظني الدَّمُ أحضرْتُ اللّه.

لكنْ، كألمٍ تتقدَّمُ الأجنحةُ؛
كَألمٍ يتقدَّمُ الكُرْدُ إلى الحقيقةْ.

كَألمٍ يسردُ الفجرُ على بَنَاتِه المكانَ رحيلاً رحيلاً؛
كَألمٍ يدْخلُ النهارُ أعمى إلى «مَهَابَاد».
وأنَا،
رَحِيلاً رَحِيلاً ــ بزَانتي ذاتِها؛ بالخفَّيْنِ الرياضيَّيْنِ، والتصْفيق الأخرس المنْسيّ على المدرَّجاتِ، حيث لم يصعَدْ أحدٌ ــ أجفِّفُ العَرَقَ عن جَبينك أيها الملاك، وأسندُ جناحيْكَ بعظامي، لألتقطَ الأرضَ التي تتسَاقطُ، منْ خلفكَ، عاصفةً عَاصفةً، وجَمَالاً جَمَالاً، ريْثما أُطلقُ السَّهمَ الأخيرَ في اتّجاهاتِ الدَّمِ الأخيرةْ.
وسَأُحْصي نَفْسِي، بعْدئذٍ،
أنيناً أنيناً،

من «مهاباد» إلى «مهاباد».

1988

مَحْمُود دَرْوِيش

I/ المكَان بِحَسبِ انْشِغالاَتِه

أ ــ وصْفُ الرّيح :

غدٌ يمضغُ اللُّبَّانَ كصبيّ نَزِقٍ، فاتِحاً أزْرارَ قمِيصِهِ الكَشْميرِ تحت شجرةِ الأكَاسْيَا. وهو ــ كأيّ غدٍ ــ نحيلٌ وهادِىءٌ. وفي التِفَاتَاتِه، بالنّاظُور الذي يرفعه إلى عينَيْهِ مُسْتجْلياً، رقّةُ حوذيّ يُسرّح جيادَهُ. لكنَّ القلمَ المعدنيَّ ــ الذي يسقط، فجاءةً، من بين أنامِله، إذْ يدوّن كالمَسَّاحِ فتورَ المشهدِ، والزوايا المُشتَبِكة بالقُبَل المُشتبكةِ ــ يرتطم بالأقْدارِ، مُجَلْجِلاً بصدىً يصِلُ الأعماقَ بأدراجها، فتصْعدُ الريحُ.

ب ــ وصْفُ الظِّلاَل :

بِيَقِينٍ شاحبٍ ترفعُ الظلالُ سراجَها الشاحبَ في الآفاقِ ذاتِهَا التي تَنْتَحِلُ الحياةُ فيها أشكالَ المنتظرين، والحقيقةُ تختلسُ من خزائنِ الحقيقةِ عصَا الأعْمَى وقفّازي المهرّج. فإذا تعثرتِ الأبديةُ بحقَائبِهِ المركُومةِ على الأدْراج فَلْتعتذرْ، لأنه ينسُجُ المشيئةَ على صُورَتِهَا. وبتوقيتِ الأبديةِ الذاهلِ، الذي تتدلَّى منه أثداؤُه النُّورانيةُ، يضْرِبُ الموعدَ الأول مَع المصَائِر، هناك، تحْتَ الشجَرةِ التي يعضُّ النهارُ على حنينها بأنيابٍ من الكَافُور.

جـ ــ وصْفُ الشُّرفة :

قضبانٌ رقيقةٌ من المعْدِن ــ مطليةٌ دُونَ مهَارةٍ ــ تقطعُ الطريقَ عَرْضاً، لتسوّرَ الأرضَ بامتلاكٍ لاَ نِزاعَ فيه. وهي باردةٌ قليلاً ذلكَ النهارَ الممسكَ بلجامِ السّاعات التي تمسحُ بالشَّحمِ عَتَلاَتِها الإلهية، وساهمةٌ في الهُبوب الخفيّ لأنفاس الأضَاليا على نُعاسِ الهَواء. وثمَّتَ ــ في اقْترابِ مَرِحٍ ــ عصافيرُ تطحنُ الهواءَ ذَرُوراً على ريشِهَا، متفتّحةً كَتَرَفٍ يُبَلِّل المعْدنَ الصامتَ. أمَّا القِفْلُ المتدلّي من سلسلةٍ تطوّقُ القُضْبانَ، فالأرضُ وحدها تُصْغي إلى نبْضِهِ الدّافىء، وإلى فُتورِهِ الذي تستعيرُ الجذورُ منه مهاراتِها.

د ــ وصْفُ الـمصْعَد :

لِلمُكعَّبِ الحيّ، في ردْهةِ الإسمنت العمُودية، دوائرُهُ الـمُجَلْجِلَةُ، ومثلَّثاتُهُ التي تخمّنُ الشهوةَ القادمةَ معَ الزَّائرين؛ ولجُدرانه نشيدُها المُرَتَّل، صعوداً هبوطاً، بأفواهٍ من أنابيبَ وأسلاكٍ. وهو يتكتَّمُ ــ بحَسب فراغِه المُتَكتَّم ــ على قاطنيه العابرين، تاركاً لأنفاسهم وَحْدَهَا أن تسردَ الحمَّى، وللعُطور الشريدةِ أنْ تموّهَ الجهَات. لكنّه يرشدُ القلقَ إلى عتبات الأبواب، بجمالِ العبَثِ الذي في خَلَجاته الآليَّة، فيقرعُ الثِّقَلُ سُكونَ الثِّقَلِ، ويُصْغي الظلامُ ــ من الكُوَى ــ إلى الضّوءِ الذي يترنَّحُ في سُعاله الطويل.

هـ ــ وصْفُ الرّدْهَة الخَارِجيّة :

مدْعسَتَانِ، ونهايةُ دَرَجٍ. أعقابُ لِفّافاتِ تبغ قديمةٌ نَجَتْ من مكْنَسةِ الخادِم، التي تركلُ الورقَ الساقطَ من الأصص بُخُفَّيها المثقُوبيْن. وتمتَماتٌ كثيرةٌ نسيَها الداخلُون والخارجُون، تتشاحنُ بلهجاتٍ تقْضمُ أظافِرَهَا، في انتظار الخُطَى التي ستَفْتح البَاب.

و ــ وصْفُ رِوَاق البيْت :

طليقةٌ رسومُ السجّاد. والتَّصاويرُ، على الجَانبيْن، تتصيَّد بِشُصُوصِها رفاهَةَ اللونِ، كأنَّما ناظرٌ مّا، وحيدٌ في هُمومٍ ترتجلُ أناقتَها،

سيرفع قلبَهُ مُحَيِّياً، وعينَاهُ تتسلَّقان ستارةَ الأبدية.

ز ــ وصْفُ البيْت :

الغُرَفُ تتناظرُ. الأرواحُ تتناظرُ. الشُّبهاتُ القويَّةُ تحومُ حولَ أُصصِ النباتِ في الزوايا. والرُّفوفُ الثقيلةُ تُسَهِّلُ، خلْسَةً، عبورَ الكلماتِ من كتابٍ إلى آخر. أمَّا الأصدافُ المُنَضَّدَةُ، كَزِينةٍ، قربَ الأرائك، فهي فكرةُ الماء المُتكَتِّمةُ على لَوْعَتِها. وما مِنْ رمادٍ لِفافةٍ يسقطُ في منْفَضةٍ نُحاسٍ إلاَّ يتبتَّلُ، كأنه ينكفىء على مذاهبِه ليهيِّىء النِّحَلَ. وثمت حقائبُ أيضاً، وأشباحُ حقائبَ تتأمَّل خرائطَها اللَّهبيةَ، مُفْتَعِلَةً جِدالَها لتُلْفِتَ الداخلَ إلى أنَّ المُمْكِنَ، وحدَهُ، هو الساهرُ على فتوحِهِ المُمْكِنَةِ.

II / مَشِينةٌ تؤلِّف المشْهَد

أ ــ مِخْبرتُه :

أيتهَا الحُمَّى الأكثر شروداً؛
أيتهَا الحُمَّى ذات المكاييلِ التي يندلقُ منها الصَّعتر،
ضَعِي ساقاً على ساقٍ في مقْعدِك العَالي،
فالواقفُ في الحَلَبة، بظلِّه الذهبيّ، سيطيلُ الوقوفَ حتى تخرجَ الأعمدةُ عن طوْرِهَا، وتنهضَ المُدَرَّجاتُ إليه مهرولةً بالجالسين عليْها.

والغبارُ سينفضُ عن قبّعة الغبار، بفرشاةٍ من الألق، سَهَرَ الأقفالِ، وستتماوجُ المراوح الأنيسةُ حيث تلتقط الفتنةُ من أيدي الأميراتِ زبيبَها، لينشغِلَ الموتُ الخفيفُ بالتقاطِ قُطنهِ المتناثر، فالواقفُ في الحلَبة يسندُ الأعالي المهدومةَ براحتِه الأكثرِ رقّةً بين الرّاحَاتِ، ويَعْذُرُ الغدَ الذي يعتذر إليْهِ كبُستانيٍّ أهملَ الحديقة.

أمَّا التواريخُ التي تتَعارَكُ قرْب محْبرتِهِ، كرُعاةٍ تداخلتْ قطعانُهم، فلا تلبثُ أن تعُود إلى قيْلولَتِها.

ب ــ عُلبة تِبْغِه :

مَنْ سيعْبث بالنشيدِ أكثرَ حتى تتعثَّرَ الريحُ، ويُحضرَ الغمامُ أزاميلَهُ ؟ مَنْ، لِفافةً لِفافةً، في الثِّقَلِ المُمْسِك ببُوقِه، يحرقُ الستارةَ ليرجعَ الممثّلون إلى المقَاعِد التي سُرِقَتْ؟

ذهبٌ أثيريٌّ يتماوجُ صاعِداً أعْلَى فأعْلَى،

والدخان الذي يخرجُ ناعِساً، بِدَفْعٍ خفيفٍ من شفتين ناعِسَتَيْن، يصرفُ الملوكَ، كأنَّما ــ في خَلْوَةِ الأقحوانِ ــ يوزّعُ الواقفُ النحيلُ إماراتِهِ.

جـ ــ قهوتُهُ :

فلْيَدْخُلِ النهارُ الـمزمجرُ برهْبَـانِه الجَاحِدين؛ بِدَلاَفِينِـهِ، وبالحركة الحنُونةِ لأذيـال النّمور. فليدخلْ مُشَتَّتـاً يجرُّ كرسيَّهُ النـورانيَّ، أو مذعُـوراً كغزالاتٍ يقْفِزْنَ عن السّياج العالي للحقيقةِ العالية.

فليدْخلِ النهارُ مغْلولاً في سلاَسِلِ البُنّ،

يتقدَّمه الـمغيبُ إلى حِصَار النّبوءة.

د ــ كسَلُه الصّبَاحيّ :

كتاباً كتاباً يفتح الجدارُ ذو الـرفوفِ عينَيْه، والستارةُ التي تنْزَاحُ، في خفقاتٍ تؤجّجُها يدٌ كسولةٌ، تحـرّرُ الشجرَ العالي، وتُطلق سراحَ الأبنيةِ. وثمَّتَ مَنْ يلمُّ، بعد ذَا، ما نسِيَه الليلُ على الأرائكِ من مجاهلَ،

وحروبٍ،

وحِلىً،

وفوانيسَ،

وحبرٍ،

عائداً بِهَا إلى سريرِهِ الذي تناهبتْهُ المجاهلُ،

والحروبُ،

والحِلَى،

والفوانيسُ،

وتمدَّدَ عليه الحبرُ في غلالتِهِ الشفيفة.

هـ ــ سِيـرةُ قلْـبِه :

تَمَالَكْ، أيهـا الحريقُ، نفْسَـكَ وأنت تنشـجُ نشيجَـكَ العالـي، إذْ يجْعلكَ الألمُ ممتنّاً للأليف الذي فيـك، وللشّفافةِ الـمحبوكةِ بقُبَـلٍ تسهرُ عليكَ سهرَها الفاتنَ. واتّسِعْ فـي هدوءٍ، فالـمكانُ لك بطَنافِسِهِ، وأجُرّهِ، ومـواثيقِهِ، وسُعـاتِـهِ، وكمائنِـهِ التـي تلتمـع كأسنـانٍ ذهبيّـةٍ. ولك الهـواءُ المدحـورُ في الــمعركةِ، وتراجُـعُ العاشـقِ، والجرْحَـى الذيـن يتوسَّلـون الضّربَةَ الأخيرةَ من الجرْحَى؛

لكَ

أيها الحريقُ؛

لكَ،

أيها الحريق..

حينَ الأبعـدُ يرتجـلُ فِرَاسـاتِهِ، مُـرْسلاً صقـورَهُ ذات الأطواقِ إلـى الـمشهد، ليُشيرَ العائدون من القيامة بأناملهم هامسينَ: «يالَلقيامة».

و ــ نظَّارته :

في كلِّ ركنٍ من خزانةِ الثيـاب نهارٌ متنكّرٌ. وعلى الـمائدة ــ قربَ قارورة الخـلِّ ــ شـروحٌ وبسالاتٌ خلّفها الـزّائرون. وثمّت مجاهـلُ رشيقةٌ تتأمّل زينَتَها فـي المرآة، وسِيرٌ ممتزجةٌ برائحة دِهان البـاب، وعناقيدُ ثومٍ تلتقطُ فراشاتِ الطّهوِ الشاردةَ.

وهْوَ

إذْ يتلمَّسُ نظارتَهُ يتلمَّسُها لاَ لِيَرَى هذا كلَّه، بل ليُلْقِيَ نظرةً على شبحهِ الباحثِ، فوق السرير، عن قمصانِهِ التي تُبَعْثِرُها الأناشِيد.

III/ هُوَ، في الأكيدِ ذاتِه..

صَخَبُهُ صخبُ الزيزفونِ. جهاتُهُ جهاتُ الزيزفونِ. وحْدَتُه ما يعتذر الوردُ به إلى الوردِ، والمكانُ حَجَلٌ في يديهِ. وحيث يتّكِيء بمرفقِه على الوسادة تتّكيء الفكرةُ أيضاً، مُنْشَدِهَةً بالرحيلِ الذي فيها. فإنْ أسَرَّتْ إليه مصبَّاتُهُ بالغمام المجلوّ تحت سيوف الرَّذاذِ اسْتَشْرَى، دافعاً بأقواسِ قُزحٍ إلى المنابعِ، وهو يطعمُ المدائحَ ــ المتزاحمةَ كالسّمانى على حَقْلَيْ مَنْكِبَيْهِ ــ من أقداره.

وبانقضاضٍ كالنِّعمةِ يأخذُ الممرَّاتِ إليه،

كأنَّه ــ هو ــ مَنْ ستسْردُهُ الحديقةُ على مواجِعِهَا،

ومَنْ سيَرفَعُ الخَفْقَةَ الأقوى إلى الجَناحِ الأقوى.

وبانقضاضٍ كسَكينةِ المعْركة سيحرّرُ الليل من ظنون الحقيقةِ، وهو يلفُّ مِئْزَرَهُ على الخنادقِ، كأنَّ الخنادقَ أطفالُه المستحمُّون.

أمَّا الفراشاتُ،

التي تسوّرُ الحبرَ بأسلاكٍ من يقينها،
فهي صفقتُه الأخيرة.

وصخبُهُ ــ بعْدَ هذَا ــ صخبُ الشّعابِ ينْهبُها المنهوبُون، مسْحُورينَ في سطوعهم على الألم السّاحِر. وبالذي فيه من نايات الرّخام، التي تتقدَّم السَّكينَةَ إلى ميراثها، يطوّقُ الخرائبَ المتألّقةَ في غَضَبِهَا، والآلَقَ ذاتَه المُمْسكَ بفرشاةِ الدَّهَّان ليرسم مآذنَ العشب وقبابَ النَّدى. ويدلُّ الشّهودَ، الذين يجرُّون الشهودَ من الأكتاف، على المشهدِ، ماسحاً زجاج نظّارتِه من ضَباب المكِيدَةِ، ليبتسمَ أكثرَ:

فالمذابحُ
تتأمَّلُ ــ
مشدوهةً ــ
حنينَهُ
الضاحكَ.

وما مِنْ خندقٍ في خَلَجاته إلاَّ يحْمِي المعجزةَ من فِتْنَتِها، كأنَّه سيذهبُ بالمكانِ أبعدَ ممَّا يسعُ المكانَ، وبالدَّويّ القادمِ إلى كلِّ أكيدٍ.

وهو يشرف كَنَذْرٍ ــ من الحقيقة التي تتسلَّلُ إليها الحرائقُ ممسِكةً بمقصَّاتها القويّةِ ــ على كَمائنِ البعيدِ، مُلْهِماً رُقَبَاءَهُ الفرَّانينَ أن يخْلِطُوا الحُروف بالأرغفة، تاركاً قلبَهُ ــ الذي يلتهم البروقَ فاجعةً فاجعةً ــ للكمين الأكبر، حيث تكتمُ الأناشيدُ أنفاسها لِئلاَّ يجْفَلَ الحبرُ، ويتمزَّقَ

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الـمـاءُ في دُرُوعِهِ.
وحيناً بعد آخر، إذ تتأمَّلُهُ الحدائق، يُغْضي،
مُصْغياً
إلى
الحياةِ
تحفرُ
بأنامِلِها
المسْلُوخة
خندقاً لِدُهَاتِها الـمكشوفين.

يا لشؤونِهِ، إذاً ــ
بالشؤونِ تعبثُ بالعاصفة،
وتداعـبُ الينابيعَ التي تتفاوز كَجِراء سلوقيّ بين مَتاريسِهِ ــ
كمْ يجْلِسانِ متقابلينِ يرمي بنَرْدِهِ على المنضدةِ وترمي بِنَرْدِها؛
كمْ تجلِسُ التواريخُ بينهُما وهيَ تجفّفُ بأنفاسِهِ دُمَاتِها المبلُولة!
وهـو إذْ يميلُ في مجلسِهِ ليداعبَ الفهودَ النائمةَ قربَ يقينِهِ،
ويمْسَحُ بقميصه السلاسلَ المشدودةَ إلى المياه، يلتفتُ إلى المشيئة في
قفطانها النَّيروزيّ هامساً: «عِمي صباحاً».
فلاَ تتأفَّفنَّ أيها الصباحُ إنْ زَجَّكَ في الملهاة،
لأنَّ البطولةَ التي تتأبَّط بَرْسِيمَهـا وخُوصَهـا سَتُحَيِّكَ من المجَازَاتِ

الاسيرَةِ في رئتيْهِ، ومن الشَّفق النازِف لوعـةً لوعةً في الأكيد العَالي، الذي يدحرجُ الشهداءُ فوق حريرهِ خُوَذَ الموتِ الـمكسورة.

وهُمْ شهداؤُه، علَى أيّة حَال.

هُم شهداؤه الأكثر اقتِحَاماً للموت بمداحِلِ الآجُرّ،

والبيوتُ التي يعبُـرون ساحَاتِها، شـاردِيْنَ في حنينهم، هـي سَلالِمُهُ الكبيرة إلى الـمديح.

فلا تتأفَّفَنَّ إنْ زجَّكَ في الورْدِ، وقيَّدَ المساءَ على كرسيِّه،

لأنه سيطلقُ الأمكنةَ من تعَبـه الشَّفيفِ حُرَّةً إلى هذيانها؛

حُرَّةً إلى آخرِ الألم،

أنيسةً،

تتمـاوجُ كـأعـرافِ الـدِّيَكَـةِ وهـي تستعـرضُ الـمغيبَ الـمتخبِّطَ كحنكليس في شِباكِ الفَجر.

يالَهُ؛

يالَشُؤونه؛

يـالَصَرْخـةِ الكَرَزِ الـمكتومةِ في الفـيْءِ الـذي يتقاسـمُ قلبَهُ سَهْـلاً سهْلاً، ومدارجَ مدارجَ؛

يالَنَـا، كمْ سنُنَـادِيه فـي الحكايـة التي تُنـادِيه وقـد أثْقَلَها العـابِرُون برمَادِهـم العَابر. كَمْ سنُقَـاسِمه النَّهبَ الذي يمسُّنـا بأقراطهِ حِينَـةَ ننحني مُقَبِّلِيْنَ قَـمَ الحياةِ الأبْعـدَ، هَامسِيـن: «جُرَّ رداءَ الخواتيم إليـك، وتلمَّسْ

بأناملك الحُـرَّةِ هذا الألمَ الـمشدودَ كجلدِ فَقْمَةٍ، فـرُبَّما سهرتْ كسهرِكَ الخسـاراتُ، وحاكَتْـكَ الـمصائرُ فبعثـرَتْ إوزّاتِ الخـزف الـمُنَضَّدَةَ على رفُـوف الغَيب. واسْتَـدِرْ رَخِيّـاً مـن مَكانِـك الطليـقِ فللبحـر قربَـكَ أنينُـهُ الطليقُ». يالَنَا..

إنّه يجْمـعُ الـمغاليقَ في يـديه كمـا يجمعُ القلقُ القـرائنَ، ويخْطُو خطواته العِنَبِيَّةَ إلى بيْانه، مُقتَفِياً أثرَ الموتِ الذي يجازفُ بنفْسه حين يلقي بها في الحقيقـةِ. وهو لا يعبأُ، في عبوره، بالـمشهد الـمستعادِ كبُرهانٍ، فالحروفُ تُنَكِّلُ ــ على أية حالٍ ــ بالـمواثيق. وفي وسْعِهِ أن يلتـفتَ من الـمُحْكَمِ إلى الـمُحْكَمِ، حيث النهارُ كَرَّاءُ نوارجَ، والتماثيـلُ تهيم على وجْهِهَا في شُحـوب الحَدائِق؛ حيث الـمعْجزةُ تتسـوَّلُ أَبَدَها من الغـرقى، والطيورُ ترقُد تحْت الأقنِعَة.

إيهْ،

في وُسْعِهِ أن يتقَرَّى الـمفاتيحَ الكبيـرةَ التي تذُوب في الأيدي، وأن يجـرَّ الغبـارَ الـمُحْتشِمَ إلـى لَهْـوٍ مُحْتَشِـمٍ، فـالمعـادنُ خائبـةٌ، والضيـاءُ الـمسعورُ ضياءٌ مسعورٌ، والجُعبةُ الخَلِقَةُ تتسـاقطُ منها السّهامُ والأحابيلُ. أمَّا البقيَّةُ التي من رجاءٍ فهي، أيضاً، هناك بِبَرَكةِ الصَّرخةِ، مبتلَّةً بالحَلِيب الـمندَلِق على اللِّحى، والنبيذِ الـمُهْرَقِ فوق الأحذية.

وفـي وسعه أن يطـوِّق السـاعـاتِ الرطبـةَ مـن أثـرِ الأنفاس، تلـك

الـمغزوَّةَ بفحولةٍ تستقصي الثمـرةَ الـمُهْمَلَةَ، ويُمَسِّدُ الحمَّى الذهبية حيث الأساطيرُ تدخلُ مرتعشةً إلى نصْرِها الباردِ. إيْـ

يْـ

يهِ،

قَسَـمُ الميـاهِ عليهِ؛ قَسَـمُ الحظـوظِ عليـه ان يهيِّىء البعيـدَ لبطـش البعيـدِ، متَّكئـاً بمشـاغلـه علـى الألقِ الـذي يغـورُ، عميقـاً، فـي جَمـالٍ منكوب.

قَسَمُ الـملهاة عليـه أنْ يَرِثَ الريحَ التي تتقـاذَفُ الكمالَ الـموحِشَ قِـلْعاً قِـلْعاً، كـأنما ــ في الحنينِ الـذي يتجرَّأُ على كلِّ شيءٍ ــ لنحيلٍ واحدٍ، بأزْرٍ من السنابل، أنْ يضلِّلَ الريح.

. . ومَن كَمِثْلِهِ سيـدلِّلُ الفكاهةَ حتـى لَكأنَّ الجهات درهمٌ يتقـاذفهُ الشّحاذون؟ أنيـسٌ في الصخب الأنيـسِ، ولاقترابـهِ العيَّارِ دعابـةُ السارقِ الذي لا يأخذُ مِنَ الكُنوز إلاَّ تواريخها.

وهو يُحْصَـى

قَدَراً

قَدَراً،

بالحسابِ الفاتنِ للعنب،

ويُعَدُّ على الأصابع ذاتها التي توقِظُ النروقَ.

فلا تتبرَّجنَّ له الـمواثيقُ، لأنّه عاكـفٌ على هذيانِ الماء، مندفعاً ــ بانْسِكابٍ لا يُمَسُّ ــ بيْنَ الأغانـي، ومن حوله حمائمُ الآجُرِّ التي يلتهمها

اليقينُ؛ مِنْ حولِهِ العظامُ المَنْسيَّةُ تحت وسائد الملوك، والحقيقةُ المُنْصِتَةُ إلى صُقورها العمياء. أما الملهاةُ، ذاتُ الأوداج المتورِّمةِ من النَّفْخِ في الأبواق، فهي تقفزُ من محْبرتِهِ كسُرْعُوفَةٍ حين يُحْصى جَمْعاً

جَمْعاً،

بالحسابِ الفاتنِ للوحدةِ،

كأنَّه استثنى نفْسَهُ حين عَدَّتْهُ الأرضُ على أصابعها التي توقظُ الفروقَ.

كأنَّهُ،

أينَ؟

ما الهبوبُ القَيُّومُ؟

إنَّها المسافةُ تأتيهِ مُخْتَبِلَةً لِتَتَقَوَّضَ في جَمَالها.

1989 / 6 / 7 - 5 / 4

ما المكانُ الأسيرُ

حين تأخذُ في يدكَ الريحَ صوبَ مفاتيحها؟

ما الصّدى؟ ما الحكايةُ، ما نزْفُها؟

ما الأنينُ الذي يتهادى بسُلْطانِهِ في هوى الحِبْرِ؟ نَهْبٌ صغيرُ

يخبّىءُ للورد رائحةَ البُنّ في سَهَر قادَ هذي الحديقَهْ
إلى حيث يشكو الصباحُ
أنّهُ لم ينمْ في يديكَ اللتين اغتَلى فيهما ذَهَبٌ لم يَنَمْ،
فأعَدْتَ الحديقهْ
إلى وَرْدها، وسرقتَ من العتبات الرقيقَهْ
شُعاعاً لهَ قَسَماتُ المكان، وأرَّخْتَ للتَّرَف
بالذي أسَرَتْكَ البراعمُ في ظنّها. أيُّ ظَنّ
سيُلقيكَ في شُبُهات من السَّعَف
كي يرى من أعاليه أنّكَ أشْفقْتَ أن تنثرَ الريحُ أكبادَها في يديكْ
فآويتَها، والتجأتَ إليكْ؟
أيُّ ظَنّ سيأخذُ وسْعَكَ؟ برقٌ على زنبقٍ أو عَسَلْ
يتلَمَّسُ إنْشادَهُ يُغيرُ عليكْ
بشقيقاته يَتَهَتَّكْنَ مثل القُبَلْ
فانتَهبْ ما تشاءُ. المكائدُ من ألَقٍ، والحريقُ الأمينُ
يُعيرُكَ كُتّانَهُ،
والهبوبُ الذي أنتَ فيهِ هبوبُ السّنونو.

1989 / 6 / 11 - 7

تَـدَابِـيـرُ عَائِلِيّـة

عُضَّ المكانَ أيها الحنينُ، عُضَّ المكان.

وأنتَ، أيها الضوءُ، عُضَّ الهواءَ الحالمَ، الذي يرفع «طوروسَ» سفحاً سفْحاً إلى أنينه الجبليّ.

عُضَّ أيها الدَّمُ حديدَكَ، ولْتَعُضَّ الحقيقةُ من ندمٍ على كَمالِها

فالمكانُ، هنا، مكانٌ، وأنا ذاهبٌ إلى حريقي؛

ذاهبٌ لأقول للسهول أكثرَ ممّا يقوله الطَّيَرانُ للأجنحة،

ولأقولَ للأرض إنها مثلي تَسْتَرِقُ السَّمْع على الفراغِ، هامسةً: «مساءَ الخيْرِ أيها الفجرُ».

ذاهبٌ لأُصمِتَ أكثرَ من شُبهَةٍ تُكَرِّرُ الشَّكلَ آدمياً آدمياً، فَلَوْعتي

مكانٌ، وحنيني حنينُ الوقتِ إلى أمومةِ الجماد. كأني ــ هكذا ــ سأعيدُ على الحقيقةِ سَرْدَ ظنونها، وأَحْفُرُ الشمالَ حَفْناً كأنّه حِنْطةٌ لم ينثُرْها الحرّاثُون في الأثلامِ العميقةِ لمحاريثِ اللّه.

فيا الجمادُ المُعَافَى؛

يا الجمادُ الساهرُ على رحيلي كُنْ مؤاتياً، لأكونَ متّسِعاً أكثر لريحِكَ الأبويةِ، وكُنْ يقظانَ كنومٍ يقظانَ، ياشفيعَ الغواية، حين تصرخ: «مساءَ الخيرِ أيها الفجرُ»، كأنّما تُقَلِّدُ الأملَ المُوجِعَ، الذي يقلِّدُ الحياةَ بصوتِه الأنثويّ.

كثيرٌ هذا الذي يُهْديني الموتُ لأكون مُمْتناً لأنيني.

كثيرٌ هذا، أيّها الجمادُ، لأقول الذي يُفْتِنُني في الضجيج المُمَزَّق هنا، حيث تخرج الأبديةُ حافيةً إلى الشرفة بعينَيها الباكيتين.

ذاهبٌ إلى كلِّ شيءٍ.

ذاهبٌ إلى كلِّ شيء.

ذاهبٌ إلى غرقٍ آخرَ للسماء.

ذاهبٌ إلى الأسواق ذاتِها، المنذورةِ لشمالٍ لم ينثُرْهُ الحرّاثُون في الأثلام العميقةِ لمحاريثِ اللّه، خفيفًا أعمقَ من شتاء، وأضلَّ من الأقحوانِ، حيث عواصفُ القماش في الأروقةِ؛ عواصفُ الشّاي في

الأرْوقةِ؛ عـواصفُ بسيطةٌ فـي الأروقة تُجَلْجِلُ بطـاسَاتِهـا النحاسيةِ كبـاعَةِ «عِرْقِ السوسِ» البارد .

وأنا أتبع العتّالِيْنَ من شاحنةٍ إلى شاحنةٍ،

ومن ظمأٍ إلى ظمأٍ،

ومن مقاديرَ إلى مقاديرَ،

خفيفًا كقضاءٍ يجتهدُ فـي اختيار النهاية، لأنني سأتـرجمُ الظهيراتِ الأكْثرِ نَكْبَةً كما تُتَرْجمُ الدِّيكَةُ النهارَ؛

خفيفاً أتبـعُ العتّالِيْنَ إلى آخِـرِي ــ إلـيَّ ــ في الـرواق الـمُمَهَّدِ بالضَّلالِ النبيل للخُطى النبيلة؛

خفيفًا كأنّمـا أُوْحيْتُ إليَّ بالعَثَرَةِ التـي قدَّمَ الوقتُ بها جسـاراتهِ إلى الخلودِ السكرانِ؛

إليَّ،

إليَّ

بـاللّهاثِ الـمُمَسَّدِ كفَـروٍ تحت خُطـى العتّالِيْـنَ، وهم يصعـدون بأكياسِ القمحِ إلى الـمشيئةِ؛

إليَّ،

فاحشاً كانقطاعِ الحقيقة عن ثَرْثَراتِهَا .

وأنا فـي اتّجاهي إلـى الشاحناتِ الكبيـرة، التي لم تَنْسَنـي، لا أَلَمٌ

الحقولَ بـل أُذَرْذِرُ الحقولَ في الهواء، وتحـت إبطيَ كيسي الذي سـأجمع فيه الـمذابحَ متأمّلا فراشاتِ أعْمَارها.

فلا تنتَظِرْني أيُّها الوقتُ،

لأنني مـزمعٌ أن أتنكَّـرَ فـي قناعِ الـدم ــ شبيـهِكَ، الذي يَـدِينُ للأسـاطير بفُكَـاهاتِـه، وأنْ أُقايـضَ النهارَ عظـاماً بعظـامٍ، حامـلاً مَيَادعَ العتّالينَ إليهم حين يفيقون من القيلـولة، في الظهيرات التي تمحو الظلالَ بمِمْحـاتِها الصلبـةِ، وأنا أرشـقُ الأعمارَ بحفنـةٍ من الشعيـر الـمُندلِقِ هنـا وهناك، حيث رُفِـعَت ــ من قبلُ ــ أكياسٌ إلى الشاحِنَاتِ، وتُرِكَ التعبُ جَليلاً يسردُ على سنابلِه القويّةِ رخاءَ المَنْسِيّينِ.

أأهمسُ: «أيها العتّالون ــ يا يَقيني في الشتاء الذي لا عملَ فيه ــ أيها العتالون؟»، أأهمسُ: «صباحَ التّعب، يا صباحَ التّعب؟»، أأهمسُ: «أيتها الشـاحناتُ، يا أخـواتي؟». مَهْلاً. كـم يتّكىء الحنينُ علـى سياج بيْتي متأفّفاً من نسياني. كم يُذَكـرني الحنينُ بي فأنسى، لأنني هناك، في الشَّفقِ الأكْثـرِ طَحْناً بمغـاليقِه؛ الأكْثـرِ سَهْواً وهـو يحصي الشعـوبَ على أصابعه الـمقطوعة.

وأنا مُمْتَثِـلٌ للنسيان، الـذي يوزّعُ الحـريقَ قَلمـاً قَلماً، مُصْـغٍ إلى الحبرِ الساهرِ بثيرانٍ من الماءِ على سهوله الـمنسيةِ، حيث ترفع السنابلُ، مثلي، ميْـدَعَةَ الأرض إلى العتّـالينَ؛ حيثُ أرتفـعُ إليَّ بنبضٍ مـن صخبِ

الحصّاداتِ الآلية، وهي تَذْرُفُ القشَّ على الجَمالِ المدحور؛
إليَّ،
بجبلٍ يدفع الجهاتِ من حوله، بيديه المائِسَتَيْنِ،
موسِّعاً للوحشيِّ كي يتّخذ الوحشيُّ زينَتَهُ الأليفَة.

أأهمسُ: «أيها العتّالون»؟. هو التَّعبُ يهمسُ كلماتِهِ المهجورةَ كي يوقظني في الآلتِ المُمْسِكِ بالحياة، إذ تتسوَّقُ الحياة في ممرَّاتِ الريح الكبيرة، كامرأةٍ فطمتْ وليدَها، ضاحكةً للعطّارينَ؛ ضاحكةً للنهاية التي تتعثَّرُ بسِلاَل الزّبيب؛ ضاااحكةً للضياءِ الجزَّار يكسرُ الأرضَ، بساطوره، ضِلْعاً ضِلْعاً.

يالَذُعرِ التراب:
كلُّ مشهدٍ يقطرُ العَرَقُ من صدغيه:
كلُّ فجاءةٍ تتهدَّلُ في القيلولةِ التي يرفعها العتّالون إلى ظهيرةِ الحلم.

وأنا أهمسُ: «أيتُها الشاحناتُ. ياأخَواتي»، راكضاً بالحقيقة؛ بالمكان المُنْتَصِرِ في خساراته؛ بي إلى أعضائيَ المُشْرفةِ من الموتِ على عويلها.

وللقطار الوحيد أهمس، أيضا: «ياأخي، أيها القطارُ الوحيدُ في الشمال»، حيث يتسرّبُ الشَّعيرُ من شقوق المقطوراتِ فيتلقَّفُهُ الجوعُ

بيديهِ السوريتين، مُسْتَنِداً إلى الفضيحـةِ التي تتدلَّى منها الحروبُ كعُنْقُوْلِ الموز.

ما همَّ: هُمُ العتّالون يرفعون الجوعَ إلى الشاحِنَات، بخطىً تتسلَّقُها السلالمُ، و يقطفُونَ الحروبَ من شجرات التوت.

هي الحروبُ تتسلَّقُ الشاحناتِ هاربةً بالأنينِ السُّوريّ إلى العتّالين، ليصعدوا أقوياءَ إلى الحروب القويّةِ.

وأنا و الشّمال عاكفانِ على آجُرِّنا الدّامي بصباحاتٍ كأزاميلَ رقيقةٍ، ننقشُ بها ما ينقشُهُ العاديُونَ على آجُرِّهم الدَّامي.

شاحناتٌ في كلِّ مكان: هذا ما أرويهِ للحكايةِ التي تُروَى بتعبٍ يُرْوَى.

شاحناتٌ في كلِّ مكانٍ،
ككثافاتٍ تتألَّقُ في ضجيجها؛
كمديحِ الشَّكلِ لنفسه؛
كاغتصابٍ يمهِّدُ للظِّلِّ أن يطيحَ بالجهاتِ.
شاحناتٌ كقلْبي، في شمالٍ كقلْبي،
وأنا أتواطَأُ مع الريحِ إذْ تعلنُ السهولُ شِقَاقَها،
وأتقرَّى بيديَّ المعرفةَ، تلكَ، النشْوَى بالذي يحلجُ السنينَ بين

يديها، وهي تنظرُ المقاديرَ تدخلُ بملاعقها التي ستَغْرفُ بها المقاديرَ كالحساء.

ثَمَّ. وماذا في الحطام الأنيق ــ ثَمَّ ــ إلاّ منازلُ هاربةٌ تتعثَّر بالقتلى؟ و السكونُ الضّاري هو السكونُ الضّاري: قطارٌ من المسافةِ إلى الوقتِ، بمقطوراتٍ تسرقُ الأقاليمَ و الظلالَ، وهي تخترقُ الغدَ السوريَّ من الدم إلى الدم.

فلا تشهقنَّ أمام الوردِ أيها التوأمُ، كأنّك ابتكارُهُ المسروقُ، ولا تقُلْ للنهار فكرتَكَ التي تُعيدُكَ، شعاعاً بعد آخر، إلَى بلاغةِ المساء،

وابقَ ــ كما أنتَ ــ وحيداً، في الفتنةِ التي تجعلُ الليلَ خلودَكَ الزائلَ؛

في الفتنةِ التي ترفعُ مِعْطفَكَ المُمَزَّقَ إلى منكبيك كلَّما ابْتَرَدْتَ في الحريق.

واتْبَعِ الشاحناتِ ذاتها إلى كلِّ مكانٍ،

إليكَ؛

إلى الشّقاء الأخضرِ،

الذي يرسمُهُ قَلَمٌ أخضرُ مسروقٌ من فكاهةِ العنب،

حاملاً تينَكَ البهلوانَ؛ عِنَبَكَ البهلوانَ؛ قَمْحَكَ المُمْعِنَ في تفسيرِهِ الذّهبيّ، كأنّما تمهّدُ الحقولُ لكَ بإنشاءٍ يُكْتَبُ فتلبسُ لها الريحَ، ويؤوِّلُكَ الليلُ تأويلَهُ النورانيَّ فيُغمى على النهارِ بين يديك.

أَتطَأُ، بعد هذا، قَدَمَ النهارِ في رجـوعك من أَلَقِ الليل، الذي يبهرُ عينيك؟ أَتطَأُ النهارَ ــ شريكَكَ النـائمَ على الرصيف الذي يعبره العتّالون من الشمـال إلى الشمال؟ حَيِّـهِ، أنتَ؛ حَيِّ الشَّـررَ القابضَ علـى ذكراكَ بيـدين مـن ظلامٍ وضّـاءَ، وافتحْ للشهـواتِ أن تتشمَّمَ، كـالهِرَرَةِ، إبطـيَّ الـمساءِ وأضلاعَـهُ الرطبةَ، فأنـت تستعيد الشمالَ حفنةً حفنـةً حين تقيسُ الأرضَ بشهواتِكَ، وتقيسُ الهواء بالقُبَلِ، عريقاً كفجرٍ،

عريقاً كماءٍ،

كفكرةٍ،

كنهْبٍ،

كفراغٍ،

كطَلْقَةِ تُرْدِي؛

لأنك تُصغي إلى الشاحناتِ الأنيسةِ متهـاديةً إلى الصيف الذي ينام على وسادتك، مُذْ تعرَّفتِ اليقظةُ عليكَ في حُلْمها.

واتبعني فراشةً فراشةً، كضجرٍ حالمٍ؛ زاهداً، فأجْرُكَ الـمياهُ أجْرُكَ الـمياهُ.

واستَعِنْ بالـمصـادفـةِ الـمحبوكـةِ مـن الـقُنَّبِ، فالغبـارُ ــ شقيقُنا ــ لا يتكَتَّمُ على الكنوزِ التي تحـاصِرُ الموتَ ــ ولا يتكتَّمُ الألَمُ على الشمالِ الذي يجـرُّهُ القطار من حنينٍ إلى حنينٍ، كـأنَّ مَجْداً مّا ينقرُ بأنامله على المنضدةِ في سوقِ العتّالينَ، وهو مستسلمٌ للقرنفلِ يلقي عليهِ

نُعاساً كالتحيَّةِ.

ولْيَتْبعني الشمالُ إلى الذي لا يُخيْفُ؛

إليَّ؛

إلى القديم الذي يتفكَّرُ في نسيانهِ ليَبْتَكِرَنا هاذيَيْن.

ولينتشرْ في حقولٍ تليقُ بشمالٍ مثلـه، لأتْبعَ الهواءَ الشّغُوفَ بتفصيل قلبي على مقاسِهِ؛ لأتبعهُ، بدوْري، إلى الذي لا يُخيفُ؛

إليَّ؛

إلى المديح الذي يُمْلَى بأنينٍ كثير.

ولتكُنْ معي هذه التي أحفرُ عميقاً تحتَ قلبها؛

عميقاً، إلى حيثُ اليقين ــ صاعداً ــ يرتّقُ الفراغَ؛ نازلاً يرتّقُ الفراغَ؛

هذه التي تتقدَّم خائضةً في الحبر كضوءِ سكران،

وأنا أدلُّها على اللَّهبِ العَطَّارِ لتتسوَّقَ الرعدَ الذي يُحِبُّني، و المساءَ الذي يُحْبِني،

نازفيْنِ كألَقِ نازفٍ؛

هكذا،

كأننا نجتهدُ أن تكون الشّقائقُ حوارَنا المُشْتَعِلَ في احتكامنا إلى السهولِ، وهي ترفع سراجَها إلى الكَمال الأعمى الذي يتسلَّى بِنَزْدٍ من الضوءِ في وحدتهِ.

كأننا، باعترافٍ واحدٍ، نعيدُ على الرَّماد المُشَرّعِ آخرَ هرطقةٍ

للجَمْر.

يا لَلْجمْرِ المتبرّم من قَلَق شراراتِهِ؛

يا لَلْقلقِ الذي يستبدُّ بسَتَائِر البيتِ، وبهيّىء الصباحَ كإفْطارٍ، حين المكانُ يُنَقّبُ عن حضورِهِ بمعاولَ نورانيَّةٍ؛

يا لانْشغالي وأنا أوسّطُ الشمالَ في شِجَارِ الجهاتِ:

أمَا مِنْ لوعةٍ أخرى؟

أمَا مِنْ كمالٍ آخر في العناقِ الذي يضربُ ضَرْبَةَ العَضَلِ الخالدَةَ، متهكّما ــ كنبوءةٍ ــ مِنَ الرُّوح؟

كلُّها روحٌ.

ضرباتيَ هذهِ،

وأنا أنظرُ الشاحناتِ تعبرُ ــ كما أعبرُ ــ قوسَ الجمالِ المرفوعَ على حديدٍ، و العتّالون يُلْقونَ ــ من فوق عوارضها الحديدِ ــ تحيَّةَ الأقدارِ على الفراغ.

كلُّها روحٌ:

هذه الممرَّات التي يعبرها القلقُ العدَّاءُ حاملاً ظلالَ الأكَاسْيا على كتفيه، كأنما يذكّرني بي، وأنا جالسٌ في كَميْنِ الفروقِ التي تُعذّبُ

الحقيقةَ.

فاشهقْ طويلاً أمام الورْدِ أيها التوأمُ، كأنَّ الوردَ نُعاسُكَ،

وقُلْ للنهار فكرتَكَ ليُحْصي المساءُ بِكَ شعاعاتٍ تائهةً في فكرتِهِ،

لأنني مؤاتِ الآن،

وخطاطيفي الـمُلْتَمِعَةُ في الغبار هي خطاطيفُ الغبار يرفعُ بها الأفقَ إلى يقيني،

لأنني أهمِسُ، مُبْتسِماً للنهاية الـمُحْضَرَةِ كَعجْلٍ من خطمها:

الحمدُ للمُشْكِلِ؛

الحمدُ للموتِ الذي يودِّعني كي يَكْتَمِلَ في وحدتِه؛

الحمدُ لِمَا لا يدومُ.

أأُحيِّيْ ما يمضي على جَسَارَةِ أن يَمْضي،

وأُحيِّيْ ما يبقى على جَسَارةِ بقائهِ؟.

أأُمْهِلُ الحياةَ كي تُعيد إلى حروبها غموضَها الـمسروقَ؟:

إنّه البهاءُ يُسَرِّحُ الأرضَ فتتوضَّحُ في غبار شاحناتِها.

وأنَا أُخْلي الـمكانَ مِنّي،

وأُخْلِي العَبَثَ، الـمفتوحَ كَشُرْفةٍ، من القهقهاتِ التي نَسِيَها البَنَّاؤون،

مُنْسَلاً ـــ كمكائدَ عذبةٍ ـــ إلى حيث الأرواحُ تقلِّدُ الأحْيَاءَ بفكاهاتها، وهي تنتظرُ مثلي ـ على الجسْرِ هناك ـ شاحناتٍ أكثر صَخَباً

بأبواقها الكبيرة.

وبأبواقٍ كبيـرةٍ أوقظُ السماءَ النائمـةَ في سكينةِ تَعَبي، لِيَكـوْنَ لَهْوٌ؛ لِتَكُوْنَ العَجَلَةُ، فالهادئون لا يعثرون على أَلَقٍ، والحاذقونَ لا يعثرون.

كلُّها صيْحةٌ، وأنا أُخْلِي اليقين منّي فـرْسخاً فرسخاً، عائداً بِمِيْدَعَةِ الريح إلـى العتّالِيْنَ يفتُّونَ الشمالَ كـالخُبْز في حساء العـدس، لأنجوَ من الـموتِ الذي لا يُمِيْـتُ، بجَسَـدٍ كالـمذاري ينثـرُ الحقيقـةَ في الـمَهَبِّ الأشَدِّ لكَمَالِنا؛

كأني أسيرُ في فتنةٍ تتوسَّلُني من حولها الأَرضُ أن أستعيدَ الأرضَ؛

كأني فـي الـمَهبِّ الأشدِّ الذي لا أستعيدُ فيه شيئـاً، ولا يستعيدُني فيه شيءٌ.

لأنَّ الضـوءَ الذي يمـزِّقُ العضَـلَ، في هـديـرِه، يمزّقُ الـمجازاتِ الشفيفةَ، فأنْحَنِي عليَّ

عَمِيـ

ـيـ

يقاً

حيث الفراغُ يعضُّ على ذَهَبِهِ،

ويتقلَّبُ الغامضُ في سريري حتى آخرِ الـموت.

يالَلموْتِ، عميـ

ـيـ

ـيـقاً ينحني عليَّ،
ليستعيدَ القناعَ الذي أعَارَني؛
ليستعيدَ مراياهُ،
وسبائكَهُ الصَّلبةَ،
وفوانيسَهُ التي يهتدي بها إلى ممرَّاتِهِ؛
ليستعيـ

ـيـ

ـيـدني مُعَافىً كالشَّكْلِ.
وأنا أستعيدُ نَفْسي، أيضاً، في المُشْكِلِ الذي يُقْلِقُ الموتَ،
وأستعيـدُ الـموتَ مُعَـافىً، لأنحنـي عليـه باسطـاً لليقينِ الـمذعورِ
سَكِينةَ الـمديح الذي يصعدُ
عميـ

ـيـ

ـيـ

ـيـقاً من الأنقاضِ،
حيث يرفع العتّالونَ بخطاطيفِهِمْ ممالِكَ الأبديةِ إلى الشاحناتِ،
صاعدينَ السَّلاَلِمَ العريقةَ ذاتَها،
نازلينَ السلالمَ العريقةَ ذاتَها،
باللّهاثِ الذي يتمزَّقُ فيه ابتكارُ اللهِ، ويلْتحِمُ ابتكارُ اللّه.

ولربّما همستُ: إنها خُطواتي الواسعةُ التي يُعيننـي بها الـموتُ لأخطوَ إلى الحياةِ بارداً كروحٍ،

دافئاً كجسدٍ في ملهاتِه.

لربّما وَعْدٌ..

لربَّما شاحناتٌ شفيفةٌ تقود الشمالَ إليَّ على عجلاتٍ شفيفةٍ،

لربّما العتّالـون، أولئك، الذين من عَرَق وأُنْـس، يعبرون قلبي إلى سَهَرِ الحنيـنِ عليهم، حين يجتهـدُ قلبي اجْتهـاد الظلِّ، ويعظُ كمـا يعظُ الـماء،

وأنـا أستعيدُ الـموتَ فيُسْتعادُ خجُـولاً، كأنّمـا استَنْفدَ الـمرافعاتِ القويةَ في تَهتُّكِهِ، واستعارني كحبرٍ ليعْتِرِفَ بخسارتِهِ.

يالَنِعمةِ الخساراتِ أن تدوّنَ ما سيدوم.

يالَنِعمةِ الخسارات أن تدوّنَ ما لن يدوم.

والغد، الذي يُسْتَعادُ، غَدٌ على أحابيله:

رقيقٌ يَسْتنفِـدُ الـموتَ بحبـرٍ مُسْتَنْفَدٍ، فـي الـمُتَّسعِ الـذي لِلْهاثِ، حيـث الجِدالُ الخفيـضُ كصـوتِ العاثِـرِ ينفخُ بفـمٍ رقيـقٍ على السطـور المتقاربةِ للحياةِ، في الورقةِ ذاتها، الـمُسَطَّرَةِ على عواهنها؛

وأنا، علـى عواهني، أُسَطِّـرُ الغيبَ في الـورقةِ التي تمتحنُنـي حِبْراً حِبْراً، حتى أسْبق نَفْسي إلى الحنينِ، مُعافًى كدويٍّ يقطفُ الجُسور.

لكنَّ بيني و بين الحِبْـر شاحناتٌ توزّع الطفولةَ على أبـواقها القويّة، فأسمعُ الشمالَ يَنْثُرُ الجهاتِ على حقوله، و ينتعِلُ الفجرَ راكضاً إلى هَرْج الليل.

يالَلْفجرِ الذي يُهدِّىءُ الليلُ من رَوْعِه،
وتُعَرِّي الحقولُ أثداءَهَ التي تُرْضعُ الضياءَ الـمُتَهَتِّكَ كالحُمَّى!
يالَلْحِبرِ ينزفُ الـمصائرَ من زُرْقَةِ الحبرِ وسطوره،
يا لابْتكارِ الشمالِ الذي يعيدُ الأرضَ إلى فِتْنَتِها الذّهبيّة:
شاحناتٍ،
ومواسمَ،
وخطاطيفَ حديداً،
وقيَّافينَ يتخفَّى منهمُ الـموتُ في قناعِ الـمياه.

حمّى مياهِ قلبي،
وأنا أغسلُ النِّعمةَ التي تغتسلُ في النّعمةِ،
مُتْرَفاً كعذابٍ،
كشقائِقَ تتطاحَنُ،
كَعَدَمٍ ملاّحٍ،
كهاويةٍ من شِبَاكٍ ذَهَبٍ تلتقطُ الأبدَ إذْ يتهاوى.

فـلا يَجْفَلَنَّ الشمـالُ أن أستعيدَهُ، هكـذا، قَلِقاً كـالتَّرَفِ، مُتَّصـلاً كعويلٍ يتلقَّفُ الطحينَ النُّورانيَّ من رَحَى اللّه،

لأنني أتلقَّفُ نَفْسِي هكـذا، قَلِقَـةً كالتَّـرَفِ، جـذْلَـى بحماقـاتها النُّورانيَّة.

وهي هكذا ــ مُذْ عرفتُها ــ نَفْسِيَ؛ هكذا ــ مذْ عرفتُهُ ــ الشمالُ: أَرِقانِ نسهـرُ على الليلِ إذْ ينام مُعَـافىً كَشَكْلٍ، ونُحصي لليقيـنِ جَهَالاتِ اليقين.

أكثيرٌهذا لنكونَ مُمْتَنَّيْنِ للموتِ؟

شمالٌ، وقلبٌ كشمالٍ، حين المكانُ ــ كبرائنَ من تَرَفٍ شاحبٍ ــ ينهشُ الفراغَ الحيَّ كبِداً كبِداً؛

شمالاااالٌ

وأنا عابرٌ إلى الـمُمَزَّقِ بجهاتٍ مُمَزَّقَةٍ،

ليتأمَّلَ العَدَمُ مفاتيحهُ، مفتوناً، بعينيه الـمُؤَرَّقتيْنِ.

شمالاااالٌ

وأنا أَحْفُنُ القلقَ من كمالِ أعضائي المستقِرَّةِ في شهواتِها، كأنّي ــ ببزوغِ العاديّ على ذهوليَ ــ أنيرُ اللّهاثَ الذي تُبصر الأرضُ فيه محاريثَ اللّه، مُلْتَفِتاً إليكِ، أنتِ التي تتقدَّمِيْنَ خائضةً في الفجرِ كشُرودِ العاشقِ، هامسةً ــ بأريجكِ الهامسِ ــ أن يُخَفِّفَ الوردُ من ثرثراتـهِ في الحديقة، هناك، حيث يُصغي قلبيَ اللَّيليُّ إلى اعتـذارِ الفَجْرِ عن اللَّيليِّ من هفوات الفَجْر.

أَتكيدُ النّعمةُ لي، بعد هذا،
أَأَكيدُ للنّعمةِ؟

قيَّافُ غَيْبٍ أنا،
أدلُّ الهباءَ على خطواتي وأُواسي الصلصالَ،
ماجناً كَكَدْحِ الوردِ، يسرقُ بشرودهِ الـمساءاتِ؛
ماجناً،
يرمي الشمالَ كما يُرمى نَرْدٌ،
ليستردَّ الجهاتِ في خساراتهِ.

نيقوسيا، 1990

فهرس

أسرى يتقاسمون الكنوز 5
مهاباد 25
محمود درويش 39
تدابير عائلية 57

إصدارات
دار توبقال للنشر
توزع في
البلاد العربية
وأوربا

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)

لَأَنْكُثَنَّ بوعدي إذاً،

فالشفاهُ التي تردّد الكمالَ الصّاخبَ تردّدُ الموتَ، والموفَدُون إلى هذا الليلِ ليبْنُوا أدراجَهُ اللولبيَّةَ يبعثرونَ الرخامَ الذي حمَلوه.

أما المشهدُ المُقَامُ على أنقاضِ حالِهِ فهو على حالِهِ،

والحيلةُ على حالِها،

والموتُ، وَحْدَهُ، الأكثرُ وِحْدَةً بين الأَسْرَى.

لكنْ، ما الذي يفعلُهُ الموتُ هنا؟

ما الذي يفعلُهُ الموتُ السكرانُ، ذو الدُّوارِ الأشدِّ، وهو يرمي بثيابِهِ إلى الأرواح؟

مَا الذي يفعله الموتُ، المُسَطِّرُ بأقلامِهِ على الفكاهةِ النائمةِ كورقةٍ مديدةٍ بين شِعْرٍ نائمٍ وأنينٍ يقظان؟

مَا الذي يفعله الموتُ، شريكي، في هذه البُرْهَةِ التي تَتَأَصَّل بجذورٍ كجذُورِ التينِ، وبراعمَ من شعاعٍ ينشرُ المغيبَ على أثداءِ شقيقاتِهِ؟

مَا الذي يفعلُهُ الموتُ، القادمُ بي إلى هَذْرِهْ؟

مَا الذي يفعله الموتُ الذي أضجَرَ الشهودَ بِهَرْجِهِ، وخرجَ مع الخارجين من الباب ذاتِهِ الذي يُفْضي إلَى الحياة؟

مَا الذي أفعلُه بالموتِ، أسيري، وأنا الحائرُ في تدبيرِ تنازينَ مضيئةٍ تليق بأسْرايَ وبِي؟